## الفصل الثانى
# سكان البصرة

**مدينة معقدة :**

لقد أطلت مناقشة طبيعة المصر ، دون أن أناقش حقيقة سكان ذلك المصر . حقًا كنت أومئ إليهم أحيانًا ، فأقول عن أبى عبيدة مثلا إنه لم يكن عربيًّا وعن الخليل إنه عربى ، غير أن هذا لا يكفى فى سبيل دراسة أدب تعاونت على إبداعه أجناس شتى .

وربما أكون متعجلا إذا قلت إننا نلتقى دائمًا فى البصرة بقوم لهم نصيب موفور من التعقد . تعقد فى الدم والجنس ، وتعقد فى المزاج والذوق ، وتعقد فى السياسة والدين والفكر والأهواء . تعقد يعم الحياة كلها ، ويشمل الأواصر والعلاقات .

كان سكان البصرة يزحمون البصرة ، وكان من هؤلاء السكان عرب نعرف تقريبًا — وعلى وجه التحديد — من أين جاءوا وفى أى مكان استقروا وكم كان عددهم ، ولكن هذا لا يعنى أننا قلنا كل شىء . فثمة عناصر وطنية ، أو ثمة سكان عرفتهم البصرة القديمة قبل أن تعرف العرب ، ومعنى هذا أن قطاعًا ضخمًا من أهل المصر كانت له حياة قارّة ، وأن هذا القطاع يحتاج إلى دراسة ونظر !

وما أظن أن يزعم زاعم أن سيكون فى ذلك إطالة ، لأنه لو فعل لجار على الحقيقة . ولما قوّم الأدب البصرى التقويم الذى تمتد جذوره إلى تربة فيها العرق العربى وفيها عرق أجنبى يجب أن يحسب له ألف حساب . فليس أدب البصرة — من كل الوجوه — كالأدب الذى عرفته جزيرة العرب منذ قديم ، ولكنه أدب

اتصل بفنون غريبة قديمة ، وخالط حضارات عتيقة ، وتلون ألوانًا نجمت عن أيديولوجيات مختلفة .

وكذا ينبغي أن أبسط حالة كل عنصر أسهم فى تعمير البصرة المسلمة . بمعنى أن أتحدث أولاً عن القطاع القديم من السكان قبل أن أتحدث عن العرب فى خططهم الجديدة ، وأنا فى ذلك — فى دراسة الوسط البشرى دراسة تحليلية — أرجو أن أتمكن من أن أكشف عن كثير مما يثار حول دم الأدباء .

## القطاع الوطنى :

سمِّه كذلك ، أو سَمِّه القطاع القديم ، أو ما شئت من التسميات ؟ فقط ضع فى الاعتبار أن أية دراسة لهذا القطاع لا يمكن أن تتم إلا فى حدود المدينة منذ عرفت الحياة. وهى قد تعرض للآراميين مثلاً ، ولكن ليس على الأساس الذى جعل كتاب الغرب يسمونهم بالأنباط [١]، ثم هى قد تعرض لمن قام على خدمة العرب من سفلة السكان، ولكن على أساس أنهم أعطوا الشكل القديم للبصرة القديمة .

ومعنى ذلك أن هذا القطاع يجمع كل من لم يكن عربيًّا أو كل من لم يدخل غازيًا فى العشرة الثانية للهجرة .

وأعترف أننى لم أستطع أن أتبين على وجه دقيق حقيقة نوع الدم الذى جرى فى شرايين ذلك القطاع ؛ فهو قد يكون آراميا كما قلت قبلُ أو قد ينتمى إلى الأكاديين ، وربما سيط دم هؤلاء وأولاء بدم الفرس حين انهار البابليون على يد كورش سنة ٥٣٨ قبل الميلاد [٢].

ويرى Clay أن الأشوريين — وهم خصوم البابليين ووارثو حضارتهم —

---

(١) راجع على سبيل المثال التنبيه والإشراف للمسعودى ١٦١ وفى الجزء الثانى من تاريخ العرب قبل الإسلام بحوث طيبة عن أولية الأنباط قام بها الدكتور جواد على (من مطبوعات المجمع العلمى العراق) .

(٢) راجع King : Egypt and Western Asia; 228 - Ency. Brit. (Babel)

اتصلوا بالآراميين ، واستطاعوا أن يكوّنوا لهم دويلات على حساب الكنعانيين غربى بلاد الشام[١] كما اتصل سكان طورسينا بالآراميين أيضًا ، ويرى كتاب العرب أن هؤلاء السكان كانوا عربًا[٢]. وليس ينبغى أن تخدعنا هذه النتائج ، كما ليس ينبغى أن نهمل السؤال عن قبائل عربية ولا أقول سامية — ليست مجهولة النسب — عاشت فى البصرة غير المسلمة .

فإذا سألنا انبرى الطبرى وابن الأثير فيزعمان أن ثمة قبائل من أولاد معد بن عدنان حين ضاق بهم العيش فى تهامة والحجاز والبحرين نزحوا إلى بابل فابتنى لهم بختنصر حران ، وحبسهم فيها ثم أنزلهم السواد فابتنوا الأنبار شمالى الحيرة ، ثم انتشروا فى منطقة الأبلة ، وظلوا هناك حتى قدمها تُبَّع الحميرى وخلّف معهم الضعفاء من قومه. ولما خرج وعاد إليهم أقرهم على حالهم وتركهم وفيهم لحيان وجعفى وطيىء وكلب وتميم ، واستناداً إلى ما يذكره المسعودى نجد أن هذا التاريخ يرجع إلى أكثر من خمسة عشر قرنًا بعد ظهور الخليل الرسول، وإلى أكثر من أربعة قرون قبل ملك الإسكندر . ومعروف أن الإسكندر حكم منذ عام ٣٣٦ قبل الميلاد فيكون تاريخ العرب فى إقليم العراق يرجع إلى نحو ثمانية قرون قبل الميلاد تزيد قليلا أو تقل[٣].

وقرب ميلاد المسيح نجد العرب يكثرون فى سواد العراق ، وكان فيهم من تميم وبكر بن وائل وعبد القيس قبائل قوية . وقد خاف سابور الفارسى — ذو الأكتاف — بأسهم فأوقع بهم وخلع أكتافهم ، ثم أتى البحرين وفيها يومذاك

---

(١) Clay : Light of Testament from Babel; 16, 138, 146.

(٢) راجع مروج الذهب ١ : ١٢٩ (ط . مصر سنة ١٣٤٦) والعرب قبل الإسلام ٦٤ — ٧٩ وابن الأثير فى الكامل ١ : ١٤٩ (المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠١ هـ) ويؤكد موسيل Musil — وهو من الذين درسوا ماضى الحجاز ونجد الصحراء — هذه الحقيقة، ويقرر أنه أشير فى الكتابات المسمارية إلى ملوك من العرب الأقحاح كانوا يحكمون سيناء . كما كان هناك « إسماعيليون» أى عرب إسماعيلية جنوب غربى البحر الميت وقرب غزة Hegaz; 274, 291. Daserta; 468

(٣) راجع تاريخ الطبرى ٢ : ٢٧ ، ٢٨ وتاريخ ابن الأثير ١ : ١١١ ، ١١٦ ، ١٤٩ والتنبيه والإشراف ٢١١ ، ٢١٣

قوم من تميم فأمعن فى قتلهم[١] ، ويبدو أن شوكتهم ظلّت قوية إذ انبرى أحد شعراء إياد يقول :

على رغم سابور بن سابور أصبحت  قباب إياد حولها الخيل والنعم[٢]

والتاريخ إلى جانب ذلك يحفظ لنا إمارة الحيرة . وقيل أنشأها العرب فى عهد سابور الأول حول سنة ٢٤٠ للميلاد وظلت حتى الإسلام . وأطلالها اليوم معروفة فى جنوبى النجف . ولكن هذا الملك الفارسى يذكرنا بمملكة عربية أخرى يقال لها الحضر فى برية بجبال تكريت بين دجلة والفرات قضى عليها فى عهد ملكها الضَّيزن وهو من قضاعة[٣] كما تقرر الروايات المتواترة أن إقليم العراق كله كان مقصداً للتجار من قريش وغيرها . ورأينا قبلُ أن أبا بكر تردد على البصرة فى جاهليته .

* * *

ومنذ قام الإسكندر يغزو الشرق عرف إقليم العراق عناصر جديدة . وكان من سياسة هذا الفاتح مزج الأجناس لأنه يتمشى مع فكرته فى تكوين إمبراطورية موحدة . وقد تزوج هو نفسه بابنة دارا ملك الفرس بعد أن قتله . ويروى أنه نقل إلى الشام قومًا من اليونانيين معظمهم من تلاميذ أرسطو[٤] ، والظاهر أن تكاثر اليونانيين فى إقليم البطائح وفى البصرة كان ملحوظًا ولأجل ذلك نسبت إليهم الأبلة وكانت تسمى أبولوجوس وجددوا بناء البصرة وسموها تريدون على نحو ما قدمنا .

ولما مات الإسكندر كانت منطقة البصرة عامرة باليونانيين واشتغلوا بالملاحة والتجارة ، وقد وزعت أملاك الفاتح اليونانى بين قواده وملوك الطوائف وكانوا

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٦٧ ومروج الذهب ١ : ١٥٨ ، ١٥٩

(٢) مروج الذهب ١ : ١٦٢

(٣) أحمد أمين فى فجر الإسلام ص ١٦ ومروج الذهب ٢ : ١٥١

(٤) مروج الذهب ١ : ١٨ ، ٢٤٦

— على ما يقال — فرسًا وعربًا ونبطًا[١]. وكان إقليم البطائح وجزء كبير من السواد بالإضافة إلى سواحل البحر المتوسط وجنوبى آسيا من نصيب « سلوقس » أحد قواد الإسكندر فكون الدولة السلوقية ، وجعل سلوقيًا فوق بابل عاصمة له وكان ذلك فى السنة نفسها التى مات فيها الإسكندر .

واستمر السلوقيون يحكمون دولتهم حتى قوى ملك من ملوك الطوائف من الفرس فوثب على السلوقيين وأسس الدولة الإشكانية وملك ما بين الموصل إلى الرى وأصبهان[٢]. ومنذ ذلك الحين والعنصر الفارسى سيّد السواد . وما حدث يؤيد ذلك . إذ لما دالت دولة الإشكانيين أخذ سلطانها الفرس الساسانيون . ويظهر فيهم سابور الثانى الذى رأيناه يخلع أكتاف العرب . وقد عاصر هذا الملك دولة الروم فكان كثير الغزو لهم ، واتبع الخطة التى جرى عليها الإسكندر فى مزج الأجناس .

ويروى أنه لما غزا « بلاد الجزيرة وآمد وغيرها من بلاد الروم نقل خلقًا من أهلها وأسكنهم بلاد السوس وتستر وغيرها من كور الأهواز فتناسلوا وقطنوا تلك الديار »[٣]. ويروى الطبرى أنه لما غزا الروم قتل وسبى كثيراً ، وأسكن من سَبَى مدينة بناحية السوس وسماها إيرانشهر سابور . كما يروى أنه نقل اثنى عشر ألفًا من أهل إصطخر وأصبهان وكور من بلاده إلى نصيبين وأسكنهم فيها ، كما نقل طبيبًا من الهند إلى الكرخ . فلما مات ورث طبه الأهلون وصار أهل تلك الناحية أطبَّ العجم فيما بعد[٤].

ولما كان عهد الرومان هو عهد المسيحية نرى الفرس يحاربون ملوكًا متنصرين وقد اصطدم ذو الأكتاف بليانوس بعد اضطهاده العرب فكان صدامًا بين الثنوية والنصرانية . وإن كانت الروايات تجمع على أن ليانوس كان يتظاهر

---

(١) مروج الذهب ١ : ١٤٥

(٢) تاريخ ابن الأثير ١ : ١٢٧

(٣) مروج الذهب ١ : ١٥١

(٤) تاريخ الطبرى ٢ : ٦٩ ، ٧٠

بالمسيحية فقط[١]. وطبيعى أن يكون الرومان أول من يحمل المسيحية إلى العراق. وربما كانت حركات سابور فى خلط الأجناس قد ساعدت هؤلاء على نشر النصرانية فى يسر، فأدى هذا إلى أن يعرف أهل السواد والبصرة رسالة المسيح.

على أننا لا ندع هذا الأمر قبل أن نضيف إلى تلك العناصر المختلفة عناصر أخرى أثرت فى حياة البصرة العقلية أثراً لا يمكن إنكاره، ومن هذه العناصر الهنود. وفى أخبار الفتوح أن المسلمين نزلوا البصرة وفيها من أهل الهند السيابجة، وفيها أيضًا أن الزط ناس من الهند غلبوا على البطائح بين واسط والبصرة، وقد نقل معاوية بن أبى سفيان بعضهم إلى السواحل عامى ٤٩ و ٥٠ للهجرة[٢].

وروى أن الله لما أظفر سعد بن أبى وقاص بأرض الحيرة كتب إليه عمر بغزو أرض الهند بقيادة عتبة بن غزوان وكانت الأبلة يومذاك تسمى أرض الهند[٣]. وما من شك فى أنها لم تكن كذلك إلا لكثرة عدد الهنود الذين كانوا فيها وغلبوا عليها.

بل لقد سمى عمر بن الخطاب منطقة البصرة بأرض الهند وذلك حين قال لعتبة: «إنى أريد أن أوجهك إلى أرض الهند لتمنع أهل تلك الجيرة من إمداد إخوانهم على إخوانكم» ويعلق الطبرى على ذلك بقوله: «والبصرة يومئذ تدعى أرض الهند فيها حجارة بيض خشن» والمسعودى يروى شيئًا مثل هذا[٤].

وليس بين أيدينا ما يمكن أن نحدد به ما يراد بالهند على وجه التحقيق. ولكن الأمر فيما يبدو لا يخرج عن شيئين: إما أن العرب كانوا يسمونها كذلك لتجمع تجارة الهند ومراكبها فيها، وإما أن الهنود كانوا غالبين على المنطقة فسميت باسمهم. وكتب الأخبار على أى حال حين تروى ذلك لا تتحفظ ولا

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٦٨

(٢) مادة سيج فى تاج العروس، وراجع أيضاً فتوح البلدان ١٦٢، ١٧١، ٣٧٣

(٣) معجم البلدان ٢ : ١٩٦

(٤) تاريخ الطبرى ٤ : ١٤٨ ومروج الذهب ١ : ٤٢٦

تحتاط ، ولا تحاول أن توضح ما وراء التسمية .

ولكن هذا لا ينفى مطلقًا أن الهنود كانوا فى هذه المنطقة، وكانوا يفدون عليها فى تجارة مثلاً ويستقر بعضهم فيها . وليس من شك فى أنهم نقلوا إلى منطقة البصرة شيئًا من موروثاتهم الاجتماعية والعقلية ، وقد روى أن أهل البصرة لم يكونوا يشتهون من النساء سوى الهنديات وبنات الهنديات والأغوار (١).

هذا ولعلنا لا نستبعد أن تكون البصرة قد عرفت أهل الحبشة وعرفت الزنوج ، وقد قيل إن الزط أنفسهم كانوا عبيداً من السودان (٢). وإذا كانت الأخبار تسكت عن كل ذلك فإن موقع الإقليم وطبيعته وكونه قريبًا من الخليج الفارسى وفيه الأبلة المرفأ الهام، كل ذلك يجعله مهيئًا ليضم عناصر شتى من الأمم عن طريق الإبحار والاتجار .

خلاصةُ هذا العرض المبسوط أن كان فى البصرةِ قبل الإسلام الأنباط — أيًّا كان دمهم — وهم العنصر الوطنى على الحقيقة ، وكان معهم قوم من فارس عرفوا بالأساورة وآخرون كانوا يملأون القرى (٣)، وإلى جانب هؤلاء زط من الهند أو السند ستراهم يحالفون تميمًا ويثيرون كثيراً من الشغب ، ومن فصيلتهم السيابجة الذين عملوا فى البصرة المسلمة جلاوزة وحراسَ سجن ، ونستطيع أن نضيف إلى هؤلاء زنجًا سيرد ذكرهم فى إحدى رسائل الجاحظ (٤).

ونفيد نحن من كل ذلك معرفةً بنوع الحياة التى كان يحياها هؤلاء لأن كثيراً من التقاليد القديمة ظل يطبع حياة البصريين فى ظل الإسلام ، حتى إن

---

(١) رسائل الجاحظ ص ٧٥

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٦٨٧ وفى « كتاب التيجان » يجعل وهب بن منبه هؤلاء الزط من شمرقند ، صفحة ١٠٥ (طبعة حيدر أباد الدكن سنة ١٣٤٧) فإن صح ذلك تكون « زاى » الكلمة هى الفارسية المثلثة وتنطق نطق الإنجليز للحرف « g » .

(٣) روى ياقوت فى معجم البلدان ١ : ٢٥٦ أن المسلمين كانوا لا يكادون يخرجون من أحيائهم حتى يجدوا أنفسهم بين قوم من إيران .

(٤) وذلك فى رسالة « فخر السودان على البيضان » وكتب ما سينيون عن الزنج فى دائرة المعارف الإسلامية .

هذا الدين لم يستطع أن يغير من عادات التجار وما صاحبها من لهو وحرص على المال ، كما لم يستطع أن يزيل الفوارق التى تقوم بين السيد صاحب الأرض والأجير الذى يعمل فى هذه الأرض .

ولقد عرف البابليون نظام الطبقات — كما يشير إلى ذلك قانون حمورابى [١] — وكان هناك السادة تقابلهم الطبقة الكادحة أو العمال إن جاز لنا أن نستعير من المحدثين اصطلاحهم . وأما الطبقة الوسطى فيسكت عنها التاريخ . وقانون حمورابى أو شريعته فى ترتيب موادّها الذى دونت به ، وفى اهتمامها بشئون المجتمع ، وفى عنايتها بمسائل الإرث والتبنى وتنظيم ملكية الأرض وتحديد الصلة بين المالك والأجير ، أقول إنها فى ذلك كله تؤيد النظام الطبقى الذى أشرت إليه !

فلأقل إذن إن الخاصة الكبرى فى المجتمع البصرى أيام حكم القدماء هو حكم الأرستقراطية المنتفعة بغلة الأرض ، وكان يقوم إزاءها الطبقة التى تثرى من التجارة ، وهذه كانت تعيش فى بذخ طالما كانت بعيدة عن هزات الحروب . ولم يتصدع هذا النظام قطّ فى أثناء توالى الأمم على حكم العراق . فكان اقتصاد شعبها اقتصاد الطبقة الدنيا العاملة الممتحنة فى وجودها ، بل كانت الغزوات المتصلة تفتّ فى عضدها وتلجئها إلى لون شاذ من الحياة وتدفع بعضها إلى الارتزاق بالحروب .

على أنى أرجح أن طبقة التجار أحدث فى عمر الزمن من الطبقة الأولى ، ذلك أن الزراعة تصاحب دائمًا نشأة الأمم لأنها مرحلة أولى من مراحل الاستقرار . ويبدو أن موقع البصرة الطبوغرافى دفع بأهلها إلى البحث عن عامل آخر ،

---

( ١ ) عرض هنرى سميث وليامز « H.S. Williams » لهذا القانون أو هذه الشريعة بالتفصيل فى كتابه « The Historians' History of the world » وذلك فى الجزء الأول من صفحة ٥٠١ إلى صفحة ٥١٤ وترجم كثيراً منها دون إشارة جرجى ز يدان فى كتابه « العرب قبل الإسلام » من صفحة ٤١ إلى صفحة ٤٧

فكانت التجارة أنسب لهم ، ثم اتسعت ميادينها حتى أرغمت الزراعة على أن تحتل المكانة الثانية .

أجل ، فالبصرة تقع على أطراف الصحراء ، وعند الطرف الشمالى من الخليج العربى . وقد حرصت الحكومات المتوالية على تنفيذ المشروعات التى تضمن سلامة هذا الجانب الاقتصادى الهام وتعمل على تسهيله . فشقت الترع وأقيمت الجسور . ولقد كانت بابل قد اتخذت من دجلة والفرات معبرين كبيرين للسفن ، وكانت فى إشرافها على الخليج الفارسى قد أقامت مستودعات تجارية ضخمة ويسرت وسائل الاتصال ووسائل المراقبة للسفن الوافدة من جميع الجهات . ويرجع اشتغال البصرة ثم بغداد فى العصر الإسلامى بالتجارة إلى هذه الأسباب نفسها . وبلغ من عناية الحكومة بالمتاجرة أنها ندبت نفسها للإشراف عليها كما سعرت السلع وسنّت شروطًا قانونية للمعاملة وحركة البيع والشراء[١] .

وكان للبابليين ثم للأشوريين — رغم أن هؤلاء كانوا من الأمم الداخلية — بحرية ضخمة ، وعنى هيرودوت بوصف سفن البابليين فى عصورها المتأخرة ، وزعم أنها بلغت من الضخامة حدًا كانت تحمل فيه من السلع ما يساوى مليونًا من الجنيهات[٢] . وقيل كان البابليون يصلون بسفنهم إلى الهند فيحصلون على كثير مما يحتاجون إليه من الأحجار الكريمة والأصباغ وكلاب الصيد . ولما جاء الفرس تولوا عنهم هذه المهمة وجعلوا ينقلون إلى بيزنطة الحمور والحرير[٣] .

وظل لإقليم العراق صبغته التجارية — متمركزة فى الأبلة والبصرة — فى عهد الإسكندر ثم فى أيام السلوقيين فالإشكانيين والساسانيين . وظلت الأبلة مرفأ السفن الآتية من الصين وما دونها حتى اغتصبها عتبة من الأساورة حراسها[٤] .

ولكن يجب ألا نتفاءل فقد كانت الثروة كلها فى يد الأغنياء الذين كانوا

---

(١) The Historians' History of the World; V.I.P. 484, 485, 486, 504

(٢) Ibid; 491, 492, V.I.

(٣) Ibid; 488, 489; V.I. وتاريخ الفلسفة فى الإسلام ١٥ (طبعة لجنة التأليف سنة ١٩٣٨)

(٤) تاريخ الطبرى ٤ : ١٤٨ ، ١٥٠

يظاهرون سادة الأرض ، وظلت الطبقة الدنيا لا تنتفع بشيء من الإصلاح . وما من شك فى أن هذه الطبقة خاضت معارك اقتصادية كثيرة قبل أن تتعرض الأرستقراطية لضربات العرب المسلمين . وفى هذه الفترة نجد البصرة مدينة مهدمة واهنة مما يدل على أن كفاح الطبقة الدنيا فيها قد انتهى بهجرة بعضهم واستسلام بعضهم الآخر للغزاة ، بل فرحتهم بهم ومدّ يد العون لهم .

وقد اقترنت حركة الفتح بامتلاك الأراضى الزراعية فنشأت طبقة أخرى من السادة امتصت عدداً ضخماً من العمال الذين كانوا يتجمعون فى البطائح وعلى شواطىء الأنهار ، بينما انصرفت جماعة من الغزاة إلى الاجتهاد والتحصيل فى أعمال التجارة ، تشجعها الدولة فتمضى فى شقّ القنوات وإقامة الجسور . وأصبح نهر مَعْقِل فى التقائه بالأبلة طريقاً تجارياً هاماً[1] ، وكانت الطرق الأخرى رائجة بسفن التجار تحمل للبصرة شتى البضائع من الأهواز ، فضلاً عما كانت تستورده من الهند وغيرها من دول الشرق . وكان للطريق التجارى الطبيعى إلى الخليج العربى — ويطلق عليه خليج البصرة — أهمية كبيرة فى تقوية حياة المصر الاقتصادية ، وتعتبر الأبلة — على نحو ما قدمت — أهم ثغر لتجارة الهند ، وقد يكون هذا تبريراً مقنعاً لتسمية البصرة القديمة بأرض الهند !

## القطاع المسلم :

وإذا كنت لم أُبْدِ اهتماما إلى بعض العناصر العربية التى مرّ ذكرها قبل عملية تمصير الإسلام للمدينة ، فلأننى أومن بما يحيط هذه العناصر من غموض القَصَص ويكفى أن يقرأ أىّ قارئ « كتاب التيجان » الذى مرّ ذكره أو كتاب « أخبار عبيد بن شرية فى أخبار اليمن »[2] ليدهش كيف كان العرب يعتبرون

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٥٨

(٢) كتاب عبيد مطبوع فى مجلد واحد مع كتاب التيجان ، والكتابان يجعلان إقليم العراق كله مجالا لنشاط اليمانيين وميداناً لانتصارات ملوك حمير ، وصاحبا الكتابين عاشا فى العصر الأموى وكان عبيد على ما قال عمرو بن العاص لمعاوية وهو فى دمشق من بقايا اليمانيين وأدرك ملوك الجاهلية « صفحة ٣١٢ من أخبار عبيد » .

إقليم العراق متنفسًا لحيويتهم وساحةً لضرباتهم !

أما هذه القبائل التى دفع بها الإسلام خارج الجزيرة، فهى تشكل معظم القطاع المسلم وليس كله ، لأنه كان مع العرب فى البصرة بعد تمصيرها الجديد هذه العناصر التى شكلت القطاع القديم ، ثم أسلمت . ولقد أذهب مذهب الذين أجهدوا أنفسهم فى الرجوع بالبابليين والأشوريين — أو السريان فى رأيهم — إلى العرب واعتبارهم عربًا غير صرحاء ، ففى ذلك من التكلف والتعنت مالا يحتمله البحث الحرّ[١]. إلا أنى أقول فى خلافى لهم إن ظروف حياتهم لم تهيئهم للعيش مع الفاتحين إلا بعد أن قاوموهم، إذ ينبغى أن ندخل فى حسابنا مصالحهم المتصلة بالأرض وضرورة الدفاع عنها . ولنقل مؤقتًا إن هذا الفريق كان هواه مع الفرس لارتباطه بهم ارتباطًا مصلحيًا. بل ينبغى ألا ندهش حين نجد مع هؤلاء قومًا من العرب غير الصرحاء لم يكن دورهم دور الشريك كما يظن الكثيرون . وليس بين يدىّ نصّ صريح فى ذلك ، ولكننا نعلم أن أهل الحيرة — وكانوا عربًا — تقضوا صلحهم لأبناء عمومتهم الغزاة ثلاث مرات على ما يوضح ذلك بالتفصيل الطبرى[٢].

أما المسالمون فكان أغلبهم — فيما رأيت — من الفلاحين المستأجرين أو الرقيق الذين يقع على عاتقهم شىء كبير من الظلم الاجتماعى . وفيهم بالطبع من اغتصبت أرضه وضيعت حقوقه، ثم فيهم — على أكبر الظن — طبقة التجار الذين يجعلون هواهم مع المنتصر، وأغلب هؤلاء من غير السكان الأصليين . وإن كان فيهم أحد منهم ، فالخير فى رأيه المحايدة .

---

(١) قال بذلك الدكتور نجيب البهبيتى فى « تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث » صفحة ٢٨١ (طبعة دار الكتب والوثائق القومية سنة ١٩٥٠) .

(٢) الطبعة الأوربية ٧ : ٢٠٤٥

**الفئات الثلاث :**

ونتقدم بعد هذا العرض الطويل لنقول إن البصرة فى الإسلام كانت فئات ثلاثًا سنحاول فى السطور التالية أن نتبين دورها فى المجتمع الإسلامى قبل أن نناقش الطبقات الاقتصادية بعدُ ؛ فأما الفئة الأولى فهى الفرس وأصحاب الأمر فى البلاد والأغنياء الذين يملكون الإقطاعات الضخمة ، وهؤلاء هم الذين انتزعت الخريبة منهم وكان يقوم على حراستهم الفرسان الأساورة وقوم من الزط . ولعلنا لا نزال نذكر قصر المرأة الذى كانت عنده بعض مسالحهم . وإذا كنا نقرأ عن استسلام المرأة بصلح ، وانضمام الأساورة إلى الفاتحين . فثمة أخبار أخرى تؤيد اشتباك المسلمين بالفرس قبل أن يطلبوا التسليم .

وإذا كانت أرض أولئك تؤول للمسلمين بحق الغلب ما لم توقع شروط الصلح ، فإن الأمر يختلف مع الذين لم ينهضوا للمقاتلة منهم ، فأرض هؤلاء تدخل فى نطاق أهل الذمة وتخرج عن نطاق الغنائم . وكان هذا التقليد استمراراً للعهد الذى أبرمه خالد بن الوليد مع دهاقين الفرس عقب الحيرة ، وفيه أنَّ « للمسلمين ما كان لآل كسرى ومن مَالَ معهم من المقام فى داره فلم يدخل فى الصلح » (١) .

وأما الفئة الثانية فهى النبط أو سكان المنطقة الأصليين أو السواد . فيدخل فيهم كل مهاجر — من قبيل التوسع — إلا أن يكون عربيًّا . وهذه كما قلنا فيها من وَقَفَ يشد أزر الفرس ، وهم بعض الملاك وكل من يسهم فى عمل إدارى يحرص على الانتفاع به ، ثم فيها الفلاحون المستضعفون الذين غلبوا على أنفسهم فلم يعودوا يبالون إلا بما يضمن لهم رزقهم الضئيل . ومن الواضح جدًّا أن هؤلاء كانوا أبعد عن غيرهم من الفرس وحروبهم ، يدلنا على ذلك هذه العبارة التى يوردها الطبرى على لسانهم حين أراد رستم الفارسى أن يثيرهم على المسلمين قالوا :

---

(١) الطبرى ١ : ٢٠٥١

« إنما نحن عاوج السواد عبيد لمن غلب »[١]. فيحددون بذلك موقفهم وموقف إخوانهم فى منطقة البصرة ، ثم يشيرون من قريب إلى دورهم فى الحياة .

هؤلاء فرضت عليهم الجزية — ما لم يكونوا أسلموا — مقابل المنعة وحراسة أرضهم حتى يتمكنوا من استثمارها . وكان أمر الجزية متروكًا للوالى أو الأمير أو المكلف من قِبَل الخليفة نفسه. وكان الغزاة مطمئنين إلى هؤلاء لأنهم كانوا لا يستطيعون مغادرة المراكز العسكرية ليحتلوا أراضيهم « وأيًّا ما كان فقد احتفظت الدولة بعائدات الجزية لنفسها واكتفت بأن أقطعت أعطيات ثابتة منها لتوزع على المحاربين وأعقابهم »[٢].

وأعود إلى المشتغلين بالإبحار أو الاتجار فأقول إن هؤلاء كانوا إما من ذوى المصالح فوقفوا موقف المعارضة ، وإما من أصحاب الدخل المحدود فوقفوا موقف الحياد . وفى الحالين وفوا بما كانوا يكلفون به من التزامات مالية . وكان أول التزاماتهم أن تعشرهم الحكومة على نحو ما سنرى حينما يندو المجتمع البصرى وينتظم ، وعلى نحو ما يحدثنا الفقيه أبو يوسف يعقوب الأنصارى فى كتاب الخراج .

وأما الفئة الثالثة فهى العرب — صرحاء وغير صرحاء — وقد آثرنا أن نذكر الآخرين منهم هنا لنقول إن الأخبار لا تحدثنا بشىء عنهم فى هذه الفترة ، ولم تعرض لفريق منهم كما عرضت لتغلب أو كما عرضت لعرب الأنبار والحيرة حتى ليبدو أن الغزاة لم يجدوا صعوبة ما فى تألفهم . على أنه لا يُسْتَبْعَدُ مطلقًا أن تكون هناك طائفةٌ قد وقفت موقف الدهاقين .

ولئن كنا نعجز عن تحديد تكتلات هؤلاء وغيرهم فى المدينة الإسلامية وبيان خط سيرهم مع الوافدين الطارئين ، فإن الشىء الذى ليس فيه شك أنهم انصرفوا جميعًا إلى ما كانوا يأخذون به أنفسهم من قبل؛ فاستمر يعمل فى

---

(١) الطبرى ١ : ٢٢٥٦

(٢) بروكلمان فى تاريخ الشعوب الإسلامية ١ : ١٣٠ ترجمة دكتور نبيه فارس ( طبعة دار العلم ببيروت ) .

الأرض من كان يعمل، وظل يشتغل بالتجارة من تعود ذلك ، وتفرق الغزاةُ فى خططهم التى حاولنا أن نقف على توزعهم فيها ، وانضم لهم فى ولاء بعض الأهلين كما رأينا من أمر السيابجة والزط والأساورة .

**العرب وخططهم :**

ويجب أن نتتبع حركة أصحاب الخطط العرب لنقدر على تتبع حياة المدينة الاجتماعية ، لأنهم — من حيث هم سادة — استطاعوا أن يطبعوا المدينة بطابعهم وجعلوا أساس تخطيطهم قبليًّا . ولكن يجب ألا نتفاءل ، فقد ذكرت قبلُ أن هناك صعوبات تحول دون ما نريد من معرفة مواقع الخطط وبالتالى العشائر أو الأسر التى ينضم عليها البطن الكبير . فمثلا لا نستطيع أن نتبين فى وضوح الفروع التى استوطنت فى البصرة لبنى عبد القيس أو العوائل التى اختطت خططها فى البلد لأهل العالية .

وكتب الأنساب التى بين أيدينا تسكت عن كل ما أريد ، وإن أشارت إلى شىء فبإيجاز مُقتَتِّر . وقد كنت أرجو من ابن دُرَيْد[1] أن يعطينا فى كتابه « الاشتقاق » صورة واضحة للقبائل التى سكنت مدينته ويعين مواضع خططها ومنازلها إلا أنه لم يفعل، واكتفى بتقصّى التفريعات منها . وهو إن كان أكثر غنى لنا فيما نريد من غيره فإن البحث يظل ناقصًا إذا قصرنا اعتمادنا عليه. وقد حاول الدكتور صالح العلى فى دراساته المستفيضة عن البصرة[2] أن يحصر القبائل العربية وفروعها معتمداً فى ذلك على شتى المصادر العربية ولا سيما تاريخ الطبرى ، ولكنه لم يستطع أن يسلم ببحثه من التعارض ، حتى لقد انتهى آخر

---

(١) هو أحد علماء اللغة البصريين لم يعش عصرنا ، ولكنه مثل شخصية البلد حتى قيل: «هو أشعر العلماء وأعلم الشعراء » برغم مواظبته على اللهو وشرب الخمر، ويعتبر كتابه «جمهرة اللغة » وقد نهج فيه نهج « العين » للخليل بن أحمد أكبر شاهد على ضخامة عقليته . ويبدو أنه كتبه بعد اتصاله بالخليفة المقتدر بالله العباسى . مات سنة ٣٢١ / ٩٣٣ فقيل « ما ازدحم العلم والشعر فى صدر أحد ازدحامهما فى صدر خلف الأحمر وأبى بكر بن دريد » .

(٢) فى كتابه التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة .

الأمر إلى أن « باب عثمان» الذى يذكره بعض الرواة فى سكة المربد[١] هو بعض شط عثمان الذى يمتد جنوبى نهر الأبلة، وسكة المربد كانت تقطع البصرة ممتدة إلى الفُرْضة مارة بالمسجد الجامع، بل إن ما بين الفرضة وفوهة الأبلة ما يزيد على أربعة فراسخ هى المسافة بين فتحة نهر الأبلة وفتحة نهر معقل إلى دجلة العوراء[٢].

بل لقد رأى بعد أن قرأ ما روى عن وقعة الجمل أن الخريبة والزاوية والزابوقة ودار الرزق لابد أن تكون فى أماكن متقاربة متجاورة إن لم تكن فى مكان واحد. وغاب عنه أن رواة الأخبار لم يكونوا يتحرون الدقة فيما ينقلون من أسماء المواضع، بخاصة إذا كانوا غرباء عنها، وإن مقارنة ساذجة لما يذكر هنا بتخطيط أولى للمدينة تظهره على غير ما رجح.

أما أنا فقد حاولت جهدى أن أجمع أغلب ما ذكرته المصادر القديمة عن البصرة وأوصافها وأسماء محلاتها وأنهارها وإقطاعاتها وقصورها، وجمعت جهدى كل أولئك فى ترسيم طبوغرافى بينت فيه — بعد طول مضاهاة وموازنة — مواضع كلّ بعد أن استقرت الأمور فى البلد واتخذت القبائل خططها النهائية وتحولت أخماساً تقوم بالإشراف على تنظيم الإدارة فيه[٣].

ولقد تبين لى أن الجماعات الإسلامية اتخذت خططها وهى على غير ائتلاف فيما عدا بكراً وعبد القيس — وهما من ربيعة — وأن الأمر فيها لذلك لم يثبت على حال، والدليل على ذلك أن العلامة ما سينيون فى ملاحظته عن طبوغرافية البصرة ينتهى إلى أنها تمصرت فى دساكر سبع هى :

١ — البطينة وتقع فى الوسط .
٢ — حدّان وتقع فى الغرب .
٣ — هداد وتقع فى الشرق .

---

(١) انظر ما قاله فى سومر ٢ : ٢٨٦ .
(٢) أبو الفداء فى كتابه تقويم البلدان ص ٥١ ، ٥٢ (طبعة درسدن سنة ١٨٤٠) .
(٣) انظر الخريطة الملحقة بآخر الكتاب .

٤ ــ الزابوقة وتقع فى الشرق .

٥ ــ الخريبة وتقع فى الجنوب .

٦ ــ السبخة وتقع فى الشرق .

٧ ــ الزاوية وتقع فى الجنوب .

وهو لم يذكر أى المصادر اعتمد عليها فى ذلك التوزيع ، فإما أن يكون أخطأ ، وخطؤه ثابت فيما يقوله عن وقوع الزاوية فى الجنوب ، والكتب تجمع على أن قصر أنس بن مالك كان بها وهو عند الطفوف فى الشمال[1] ، وإما أن يكون قد قصر وصفه على الحال فيها أول الأمر وهذا لا يفهم من كلامه . لأنه يوضح بعد ذلك أخماس البصرة وكيف أن بكراً استقرت فى الوسط والشمال الشرقى ، وتميماً فى الغرب والجنوب الغربى ، والأزد فى الشمال الغربى ، وأهل العالية فى الوسط بين الجامع والبطينة يقصد الباطنة[2] .

ونريد أن نزيد الملامح وضوحاً فى ذلك فنقول : أما البطينة أو الباطنة فهى المنطقة التى كانت تحيط بالمسجد الجامع مركز المدينة وتمر بها سكة المربد إلى الفرضة ، وكانت حدّان ــ وهى قبيلة أزدية قيل إن عائشة حاربت فى الجمل بساحتها[3] ــ تقع إلى الغرب منها على ما يقول ماسينيون . ولكن ينبغى ألا يفهم منه أن كل الأزد سكنوا هناك لأنا رأينا بعد التحقيق أنهم قد استقروا فى أقصى الجنوب ، ذلك أنهم دخلوا البصرة بعد أن سبقهم إليها كثيرون ، ولا ينفى هذا وجود بعضهم قريبين من قلب المدينة كحدان أو من شرقها العامر كهداد .

أما الزابوقة فهى ــ كما تدل عليها الخريطة الملحقة بالكتاب ــ الجزء الغربى من البصرة آخذة بعض قلب المدينة من الشمال ، فى حين تمتد الخريبةُ شرقاً

---

(١) راجع الزاوية فى ياقوت ص ٩١١ ومعجم ما استعجم ٨٩١ وفتح البارى ٢ : ٢٦٢.

(٢) راجع خطط الكوفة ص ٣٧ ، ٣٨ ترجمة المصعبى (طبعة مطبعة العرفان بصيدا).

(٣) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٧٨ وحدان هو ابن عمرو غنم ، صاعداً إلى عبد الله بن أزد من فرع كهلان بن قحطان ، ويزعم بعض الإخباريين أن قحطان من ولد هود النبى (راجع كتاب التيجان ٣١ ) .

متجهةً جنوبًا محاذية للسبخة آخر العمار ، وعلى ذلك تكون الأخماس فى رأينا موزعة على الوجه التالى :

١ — خمس تميم فى الجنوب الغربى من البصرة وتمتد رقعتهم إلى نهر الأساورة جنوبًا حيث الزط والسيابجة أحلافهم ، وإلى المربد غربًا حيث جبانة بنى مازن من تميم ، وقيل إن جيش السيدة عائشة عرج فى تقدمه من المربد متيامنًا عليها قبل أن يصعد إلى الزابوقة ، ثم يحارب فى حدان الأزدية[١] .

٢ — خمس بكر فى الشمال والشمال الغربى ، وقصر أوس — أحد الشخصيات البكرية البارزة — يقع قرب المربد فى شرقه .

٣ — خمس عبد القيس عند نهر معقل ودار الرزق فى شرقى البصرة ، وقد اختلطت خططهم بخطط بكر وامتدت منازل الجميع إلى الزابوقة .

٤ — خمس أهل العالية وهم الموظفون وأصحاب المناصب من قيس وقريش وغيرهما ، وكانت منازلهم ممتدة إلى الجنوب الشرقى من البصرة ، وسكنت ثقيف منهم قرب المسجد الجامع إلى الجنوب مقتربة من بنى سدوس البكريين — وكانوا إلى شمال الجامع — ويلى ثقيفًا إلى الجنوب سليم ثم طاحية . وقد روى أن عبيد الله بن زياد عند ما أراد الالتجاء إلى الأزد مرَّ ببنى سليم ثم بناجية فطاحية . هذا وقد نزلت هذيل فى أقصى الطرف الجنوبى الشرقى من البلدة ، ويبدو أن نزولها كان متأخراً .

٥ — خمس الأزد ، وقد ذكرنا أنهم وفدوا على البصرة متأخرين[٢] سوى حدان وهداد فاستقروا فى الأطراف البعيدة عن المسجد الجامع ، ونزلوا فى الجزء الجنوبى الغربى من البلد قرب وادى العقيق . وقد نقل الدكتور صالح العلى نصًّا للبلاذرى من مخطوط للأنساب فى دار الكتب ، بين فيه أن وادى العقيق

---

(١) راجع ما قلناه ثم تاريخ الطبرى ١ : ٣١٢٢

(٢) راجع أيضا نقائض جرير والفرزدق ٧٢٩

حين فاضت أنهاره خرّب دور العتيك — وهم الأزد — فأعانهم أمير البصرة على حالهم[١].

هذه هى الأخماس ، أما عشائرها وأسرها وفروعها فشىء أكبر من أن أعرض له هنا . إلاأننى تتبعت ما قام به الدكتور صالح العلى حول هذا الموضوع واستدركت عليه بعض أسماء لعشائر لعبت دورها الهام فى حياة البصرة ، أو على الأقل كان لأصحابها خطط معروفة ، من ذلك — على سبيل المثال — بنو عسل من تميم لم يشر إليهم مع أن ابن دريد يذكر لهم خطة[٢]، وبنو مذعور بن دوكس من بكر ولهم خطة[٣]، وبنو غراب من الأزد ولهم خطة[٤]. ولم يذكر أحداً من عبد القيس ففاته — فيما فاته — بنو الديل رهط بنى صوحان ، وكانوا شيعة ثابتين على تشيعهم ، وبنو العمور وكان عبد الله بن سبأ قائدهم فى وقعة الجمل ، وبنو جبلة الذين اشتبكوا مع أنصار عثمان بن حنيف أمير البصرة فى الزابوقة يوم الجمل وكان منهم كليم بن جبلة العبدى[٥].

ويلاحظ أن بنى عبد القيس كانوا من بقايا القبائل التى سكنت هذه الربوع قبلُ ، عند البحرين على وجه التحديد . ويقول ابن دريد إن بعض تميم من دارم ومقاعس وبنى العدوية سموا هجريين لأنهم هاجروا مع عبد القيس إلى البصرة[٦]. وليس يبعد أن يكون فيهم قوم من إياد وعك ، وكانوا يجوبون تلك المنطقة على ما رأينا .

وهكذا تصبح قبائل العرب فى خططها الأخيرة أى بعد تكوُّنِ الأخماس بالصورة الآتية :

---

(١) راجع سومر ٢ : ٣٠٠

(٢) الاشتقاق ١٣٩

(٣) الاشتقاق ٢٠٨

(٤) الاشتقاق ٢٩٧

(٥) راجع تاريخ الطبرى ١ : ٣١٢٨

(٦) الاشتقاق ١١٤

١ ــ تميم وفيهم بنو سعد وبنو العنبر ومالك بن العنبر ومجاشع ونهشل والهجيم والفقيم والغدان ومازن والهجريون وبنو عسل وبنو العم . والفرع الأخير كان فى الأهواز ثم انتقل إلى البصرة أيام عمر بن الخطاب وارتبط بتميم ، وثمة من يرى أصلهم كالمدفوع[١] . أما بنو سعد فتدخل فيهم عشيرة قليب ، وفى مالك بن العنبر يدخل عامر ، وفى عداد مجاشع شعيراء وعامر بن زيد ، وفى نهشل بهر وربيعة ورزام وكعب بن شقرة ، وفى الهجيم بنو العنبر بن عوف ، وفى الفقيم أبان ابن دارم الكردوسان .

٢ ــ بكر وفيهم شيبان وعجل ورقاش وسدوس وجحدر وحنيفة وضبيعة ويشكر وعنزة وتيم اللات بن ثعلبة وتميم بن شيبان وذهل بن شيبان . ويقال إن بكراً لم تكن كذلك عقب المحالفة التى حدثت أيام زياد بين بطون بكر عند تكوينه الأخماس ، إذ كانت مكونة من ثمانى عشائر هى بنو قيس بن ثعلبة وعنزة وشيع اللات وعجل وذهل بن شيبان وذهل بن ثعلبة ويشكر وضبيعة[٢] . وكانت بكر شيعية فى حين أنها نصبت نفسها للعداء ضد الشيعة فى الكوفة[٣] .

٣ ــ عبد القيس وهؤلاء كانوا قلة اختلطت ببكر ، ومنهم بنو الديل ورهط بنى صوحان ، وبنو العمور ، وبنو جبلة .

٤ ــ أهل العالية ومنهم سليم وسهم ومزينة وناجية وسامة وهذيل وعقيل وقشير وبنانة وباهلة وخزاعة وكعب وليث وثقيف وتيم بن مرة ونمير وغنى وزهرة ونهد وحريش وقريش . ويلاحظ أن بعض هذه الفروع لا تذكر المصادر لها خططاً مع أن لبعضها دوراً حول المسجد الجامع وبالقرب منه كما رأينا .

٥ ــ الأزد ومنهم حدان وهداد وعتيك وزهران وطاحية وجهضم والعوقة وهناءة والقساءل وعلى بن سود وقردوس وجديد وأنعم وأكلب ومنهم بنو غراب ، ولهؤلاء خطط ذكرتها المصادر القديمة بغير إجماع . وهناك عشائر أخرى لم

---

(١) راجع الأغانى ٣ : ٢٥٧ ( طبعة دار الكتب والوثائق القومية ) .
(٢) راجع سوبر ٢ : ٢٩٢
(٣) خطط الكوفة ٣٦

ترد لها خطط وهى جابر ورباح والحرقة واليحمد وأشقر وشقرة وشريك وعوذ وجرم .

**علاقات أصحاب الخطط :**

أما وقد رأينا تخطيط البصرة قائمًا على أساس من توزع القبائل ، فلسنا نطمع فى أن نرى مجتمعًا يسرع إلى الاستقرار . وعلى الرغم من أن الزمن يمحو بعض الفروق المكانية بين القبائل فتختلط عبد القيس ببكر ، أو يخفف بعض الفوارق العصبية بين العشائر فيتقارب أهل العالية على ما رأينا. فقد ظل المجتمع يصطدم باتجاهات متشابكة متضاربة ويعانى مشكلات معقدة متباينة ويتقلب بين وضع ووضع ، ويتشكل من صورة إلى صورة، ويضطر آخر الأمر إلى أن يخضع لأسباب بعضها سياسى وبعضها اقتصادى . بعضها يستند إلى العطاء، وبعضها يرتكز إلى الساقة ، وبعضها يقويه النسب. ومن ثم مرت السنون فى قلق واضطراب قبل أن تهدأ البصرة، وتستقر ، ويتكون المجتمع الجديد . وكانت أقوى خطوة حدثت فى سبيل التكتل وإلغاء كثير من الفروق ما فعله زياد حين كون الأخماس ، فكان ذلك ربطًا بين القبائل وإيذانًا بتغيير نظرتهم إلى الحياة وخطوة قوية نحو صياغة المجتمع المدنى .

وقد صاحب هذا الإحساس بالمدينة شىء إن كان يتصل بأعمال الإدارة فهو فى الوقت نفسه شديد الدلالة على التحول الذى طرأ على قبائل العرب داخل البصرة . ذلك أن زياداً استطاع أن يجمع من أبناء القبائل حوله حرسًا كان يقوم ببعض ما تقوم به الشرط . ونحن لا نبالغ فى ذلك ولا نسرف ، فالشرط كانوا معروفين فى البصرة قبل أن يطأ الغزاة منطقتها، وكان منهم السياجمة الذين وكل إلى أربعمائة منهم حراسة بيت المال والسجن منذ أيام أبى موسى[1]، وسنرى أنهم يقاومون الزبير عند ما جاء مع عائشة إلى البصرة لمحاربة على بن أبى طالب[2].

---

(١) راجع فتوح البلدان ٣٧٦ ، ولسان العرب ٣ : ١١٩

(٢) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٢٥

على أن الملحوظ أنهم لم يكونوا عربًا ، وفى عهد زياد دخل فيهم العنصر العربى . دخل ممثلاً فى خمسمائة رجل أسندت قيادتهم إلى كل من شيبان بن عبد الله ، وعبد الله بن حصن ، وهما من رجالات البصرة البارزين[١]. ولكن زياداً لم يفته فى سبيل الحياة الجديدة أن يقوى من سلطة العرفاء فيضعف بذلك سلطة شيوخ القبائل ، فجعل كل عريف مسؤولاً عن كثير مما يحدث فى عرافته ؛ فهو يوزع العطاء ويزيد فيه أو ينقص ، وهو يسجل موت من يموت ومولد من يولد ، وهو يراقب مثيرى الفتن ويبلغ عمن يفسد النظام ، وهو يدعو الجند إلى الجهاد ، بل هو مسؤول عن دفع الديات التى تطلب من أفراد عرافته[٢] . لذلك كان العرفاء أكبر عون فى مباشرة أعمال المدينة الإدارية ، وقد أوصى بهم الخلفاء واشترطوا فى تعيينهم قوة الشخصية .

والأمر سواء بالنسبة للعرفاء ورؤوس الأخماس ؛ فالجميع لا سلطان لهم إلا بتفويض من صاحب الأمر ، وقد مضى شأنهم يضعف على توالى الأيام واطراد نمو الحياة المدنية فى البصرة . إلا أن هذا لم يمنع من وجود النفر الذى يثور على هذه التنظيمات . ولما لم يكن هناك وسيلة قانونية لمناقشة شرعية ما يقوم به الإداريون ، فقد اختلفت الأهواء وثارت وتوزع الناس بين محتج باللسان ، ومرجئ حكمه إلى الله يوم القيامة ، ومهاجر عاص للحكومة . ولم يتكون الخوارج فى واقع الأمر إلا بعد أن تقلبوا هذا التقلب ، حتى إذا أعلنوا ثورتهم أيام الأمويين وجدوا لها صدى عند الكثيرين .

وقصارى القول أن طبقات السكان كانت محددة متميزة ، وهى إذا كانت ترتكز إلى لون من التحزب فإن قيامها كان تجسيماً لحاجات الناس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ومن أول الأمر رأينا فى البصرة طبقتين متمايزتين هما نتيجة لحكم العرب الثيوقراطى : أما الطبقة الأولى فهى العرب ومنهم الحكام المعينون من قبل الخليفة الذى يحكم باسم الله ، وأما الطبقة الثانية فهى الرعية وقوامها

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٧٩

(٢) راجع الطبرى ١ : ٣٣٧١ ، ٢ : ٢٤٢ ، ٨٦٦ ، ٨٧٠ ، ٩٠٢

غير العرب أولاً ، ثم دخلتها العناصر العربية التى كانت تهاجر والتى كانت تنتهى مدة خدمتها العسكرية . والطبقتان مختلفتان من أول الأمر أيضًا دينيًّا ، وبالتالى اقتصاديًّا واجتماعيًّا . وقد انتهى الأمر بأن أصبحت ثروة البلد فى يد الفاتحين بعد إقطاعهم الإقطاعات واستيلائهم على أمور التجارة ، فيتحول الأعاجم إلى المعدمين يمسهم الضر الاقتصادى فى كل وقت . وجَسَّم بؤس هذه الطبقة فساد الحياة السياسية بالبلد ، وتعرضه لثورات الخوارج ، وتعسف عمال الخراج فى جمع المال .

وعلى أى حال فقد ينبغى أن نتحدث عن كل طبقة حديثًا مفصلاً حتى نرى بعض ملامح البيئة التى كان يعيش فيها أدب البصرة .

**طبقاتهم الاقتصادية :**

أما العرب فلسنا فى حاجة إلى أن نعيد وصفهم بالأرستقراطية . غير أنا فى مقارنتهم بمن ظل فى الحجاز نراهم يكونون طبقة متوسطة بين أولاء وسكان البلاد المفتوحة . فإذا رجعنا نبحث فيما وضعهم هذا الموضع وجدنا السياسة تلعب دورها الأول ، ولا سيما بالنسبة للقرشيين الذين عادوا إلى مكة والمدينة ، وتركوا قلة منهم صارت من أهل العالية فى أخماس زياد. والأمر هنا على أى حال لا يحتاج إلى تقصٍّ ؛ فهم قبلُ الغزاة ، وهم الذين بنوا ، وهم يجب أن يكون لهم شىء من التميز والتفرد ، وكذا وجدت المبررات التى تجعلهم ينسون ما يدعو إليه دينهم من مساواة .

بل لقد قويت هذه المبررات فيما بين أنفسهم هم ؛ فثمة صحابة وتابعون ، وثمة قواد وسابقة ، وثمة جنود وأصحاب أعشار ، وثمة شيوخ وعرفاء وهكذا . فإذا التمايز يجرى بين الناس عُرفًا ، وإذا هم بعد ذلك أرستقراطية حاكمة وأرستقراطية محاربة . ومن أولاء وأولئك قوم ملكوا الأرض واقتنوا القصور وجمعوا المال حتى إن أنس بن جحية يقول لعمر بن الخطاب — وهذا فى زمن مبكر جدًّا —

حين يسأله عن مسلمى البصرة : لقد انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة[١].

بدأت صلة هؤلاء بالبصرة على وجه التحديد — الصلة المجتمعية — حين فازوا فى غنائمهم بقطع الأرض . وقد روى أن عمر بدأ فأقطع أبا بكرة ونافع بن الحارث — وهما من أوائل الذين نزلوا البصرة — الضياع . وترك عمر تردده مع أنه كان يخشى انصراف العرب إلى الدعة ، وكتب إلى أمير البصرة يوصى بنافع فيقول : « أما بعد فإن أبا عبد الله ذكر أنه زرع فى إمرة ابن غزوان وافتلى أولاد الخيل حين لم يفتلها أحد من أهل البصرة ، فأعنه على زرعه وخيله » وكانت دار نافع أول دار أقيمت فى البصرة[٢].

ولما جاء عثمان بن عفان جرى على سُنة سلفه وتوسع ؛ فأقطع الكثيرين ، منهم عمران بن حصين وابن عامر وحمران وعثمان بن أبى العاص الثقفى صاحب شط عثمان بحيال الأبلة[٣].

وصاحَبَ هذا الإقطاع تشييد القصور وتعميرها . ونظرة عابرة فيما كتبه البلاذرى معدداً إياها ترينا كيف أصبح السادة يتمتعون بما لم يكونوا يحلمون به[٤] حتى الصحابة لم يزهدوا فى الدنيا ولم ينصرفوا عن التمتع بنعيمها ، فاقتنى أنس بن مالك قصره الضخم الفخم ، وكنا قلنا عنه إنه فى الزاوية عند الطفوف .

ولم أذكر هنا الأمراء لأن غناهم مما يشهد به الجميع . وقد روى مثلا أن راتب خالد القسرى بلغ عشرين ألف ألف درهم ، وكان ينفق ما يزيد على مائة ألف ألف[٥].

---

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ١٥١ (طبعة مصر) .

(٢) فتوح البلدان ٣٥١ وأفلى الفرس : بلغ ولدها أن يفطم ، وكانت ذات فلو فهى مفل ومفلية والجمع فلاوى « بفتح الواو » وأفلاء والأنثى فلوة « بفتح الفاء وضم اللام وتضعيف الواو » .

(٣) المرجع السابق والموضع نفسه .

(٤) فتوح البلدان ٣٥٥ ، ٣٥٦

(٥) تاريخ اليعقوبى ٢ : ٣٣٨ (طبعة هوتسما) .

وأما المحاربون فقد كان همهم أن يحوزوا من المال أكبر مقدار ؛ ذلك أنهم لم يكونوا مطمئنين إلى حياتهم أن تطول فكانوا يقتنصون الفرصة حريصين دائمًا على أن يكونوا فى أهبة القتال ، وما كان أكثر خروجهم فى البعوث التى يبعثهم بها زياد والحجاج وخالد القسرى ! عن هذه السبيل — سبيل الغزو — عرفوا الغنى ولم يدفعوا عن أموالهم سوى الزكاة والصدقات . ولكنهم كانوا إذا قعدوا وأطالوا القعود ظهرت حاجتهم إلى المال ونزلوا إلى العامة أو الرَّعية يضطربون فيما يضطربون فيه ، وإذا هم يعانون مثلهم — وخاصة حين تتقدم الأيام — شَرَّ العوز ، ويشكون مما تشكو منه الرعية. وفى ديوان الفرزدق — وهو الذى ندب نفسه محاميًا عن تميم — صرخات من ظلم جباة الضرائب ، وأما جرير فيكفى أن نسمعه يقول :

منعت عطائى يابن سعد وإنما سبقت إلى الموت وهو قريبُ
فإن ترجعوا رزقى إلىَّ فإنه متاع ليالٍ والحياة كذوبُ[1]

لنرى كيف هوى إلى تلك الطبقة التى لم يستطع الدين أن ينسى الأمويين أنها دونهم ، بل هو يكاد يحس إحساسهم حتى إذا يقول فى مدحهم :

فيجمعنا والعزَّ أولادَ سادة أبٌ لا يبالى بعده من تعذرا

يجتمعون مسلمين عليه ويهدون له مائة حلة[2].

والخلاصة أن العرب فى جملتهم كانوا هم سادة البلد . وفى عهد بنى أمية بالذات رفضوا فكرة التسوية وتعصبوا لجنسهم تعصبًا قويًّا ، بل احتقروا الهجناء أولاد الإماء ، قال ابن عبد ربه « وكانت بنو أمية لا تستخلف بنى الإماء وقالوا : لا تصلح لهم العرب »[3].

فليس عجيبًا أن تقوى فكرة الشعوبية وتأخذ بها الطبقات الدنيا ، ثم يستغلها العباسيون لهدم ملك بنى أمية فيكون ذلك أقوى دليل على فساد حكمهم .

---

(١) ديوان جرير ٤ ( طبعة الصاوى )
(٢) الأغانى ٧ : ٦٥
(٣) العقد الفريد ٣ : ٢٩٧

ولكن البصرة فى هذا العهد لاتفقد صورتها الأولى. ففيما عدا ما حدث لدور الأمويين وإقطاعاتهم وظهور العنصر الفارسى ممثلا فى بنى نوبخت موالى العباسيين متمتعين بمثل ما تمتع به أشراف بنى أمية ظل كل شىء كما كان. بل لقد كان أغلب أمراء البصرة عربًا، منهم سلم بن قتيبة الباهلى وسليمان بن على وغيرهما . وكذا نستطيع أن نقول إن المجتمع البصرى أيام العباسيين لم يفقد كثيراً من تنظيماته الطبقية . أما ما كان يحدث داخل هذه الطبقات من تزاوج يصهر فوارق الجنس ويقرب أسباب اللسان فشىء فرغ الدارسون من الوقوف عنده والتدليل عليه .

* * *

وفى مقابل السادة العرب عاش فى البصرة رعيتها ، وهم كانوا بين فرس وهنود ويونان وبين نبط مثلوا فى أغلبهم أكرة الدساكر . وعلى الرغم من أن الله يقول : « إنما المؤمنون إخوة » والرسول يردد « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » فقد أحجم العرب عن أن يسووا بهم أنفسهم ، وراحوا يعاملونهم معاملة السيد لعبده ولا « يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ولا يمشون فى الصف معهم ولا يتقدمونهم فى الموكب »(١) .

ومع ذلك فقد شاركوا فى بناء المجتمع وتوافدوا على البلد من ريفه، حتى إذا كثروا دعا معاويةُ الأحنف بنَ قيس وسمرة بنَ جندب ليقول لهما : إننى رأيت هذه الحمراء قد كثرت وأراها قد قطعت على السلف ، وكأنى أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق فما ترون ؟ أما الأحنف فابتغى لهم السلامة فى حين عوّل سمرة بن جندب على قمعهم(٢) .

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٢٦٠

(٢) السابق ٢ : ٢٦١

ويمكن أن يقال بصفة عامة إن هؤلاء لم يحسوا كبير فرق بين السادة الطارئين وسادتهم من الدهاقين ، وتعسف جامعو الخراج فى جمع المال وذاقوا منهم من صنوف التنكيل والأذى مالم يستطيعوا احتماله فتركوا أرضهم وفزعوا إلى الحضر وملأوه حتى خيف على القوم منهم كما خيف قبلُ ، وإذا الحجاج يكتب إلى عامله بالبصرة يقول : « إذا أتاك كتابى فانف من قبلك من النبط فإنهم مفسدة للدين والدنيا » وقام العامل بما كلف به ولم يدع منهم إلا الفقهاء والقراء ، فلما علم الحجاج بذلك كتب إليه : « إذا قرأت كتابى فادع من قبلك من الأطباء فمن بين أيديهم ليقفوا عروقك ، فإن وجدوا فيك عرقاً نبطيًّا فاقطعه »[١] .

وتذهب الروايات إلى أنه فعل بهم ذلك حين رآهم يتبعون ابنَ الأشعث وفيهم من فقهاء البصرة كثيرون ، ثم قالت : « ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التى وجهه إليها »[٢] ، بل لقد أصبح من عادة العرب أن يميزوا مواليهم بختوم تعلق فى أعناقهم ، يقول الأصمعى :

وجئن بأولادِ النَّصارَى إليكمُ حبالَى وفى أعناقِهِنَّ المراصعُ[٣]

والمراصع هى الختوم .

ولا شك أن هذه المعاملةَ القاسيةَ كانت من أقوى الأسباب فى اختلال التوازن الطبقى داخل المجتمع ، ومن ثم تحوّلت تلك الفئة الفقيرة — وكنا سميناها الطبقة الدنيا العاملة — إلى كل ثورة تنشب فى المدينة .

على أنّا نقول إن كفاحها يتحوّلُ منذ عهد الحجاج إلى شعوبية يؤجج الفرس من نيرانها ، وما من شك فى أنها كانت بذلك تهيئ الفرصةَ لنمو التشيُّع فى المدينة . هذا على الرغم من أن عامة العرب وقبائلهم فى المدينة كانوا

(١) محاضرات الأدباء ١ : ٢١٨

(٢) العقد الفريد ٢ : ٢٦٢

(٣) المخصص لابن سيدة ٦ : ٢٧

ضد هذا التشيع إلا بكراً وعبد القيس على نحو ما قلنا ، ويذهب ابن قتيبة إلى أن الشيعة سفلة الناس وغوغاؤهم « فهم من الحشْوة وأوباش النبط وأبناء أكرةِ القُرى » .

ونقول بعد ذلك إن الطبقة الدنيا حين أحست بالضيق وكثر ندبها الاجتماعى انقسمت قسمين : أحدهما فيه الفرس يتخذ كفاحهم صبغة فارسية وقد يسعون بالزندقة والإلحاد ، والآخر فيه النبط يتخذ كفاحهم شكل عصبية لأرضهم التى طردوا منها . وقد خاض كل قسم معارك سياسية واقتصادية مقترنة بالشغب ، وانتهى الأمر بهما إلى الإخفاق عقب القضاء على صاحب الزنج ، ولكنها رغم إخفاقها هزت الرأسمالية العربية هزًّا عنيفًا .

والحق أن ثورة الزنج كانت أقوى حرب سافرة بين البصرة وبطيحتها أو بين الحضر والريف . وكانت كغيرها مصرعًا لآمال الفقراء وانكساراً يخلد انتصار الحكام والأشراف . وكان انتصار هؤلاء فى كل مرة انتصاراً للرأسمالية التى يمثلها أصحاب الإقطاعات من ناحية وأصحاب التجارة من ناحية أخرى .

ولسنا ننكر أن الأرستقراطية كانت تدفع مَنْ حولَها مِنْ فئات الشعب إلى لون من الرخاء ، وكانت حركة التجارة الدائبة عونًا لاستمراره ، إلا أنه لم يمس الطبقة الدنيا . وقارئ الأخبار فى « الأغانى » وبقايا الدثور يحس هذا الرخاء حقًّا ولكنه يحس أيضًا أنه لم يكن رخاء شعبيًّا . وإذن فهو يصوّر الأرستقراطية والمتصلين بالأرستقراطية من المنتفعين ، وإذا هذه الأخبارُ فى حقيقتها لا تلتفت إلى الشعب حتى لكأنه يعيش وليست له مشكلات .

كان هذا الفريق إذن مغلوبًا على أمره . كان مغلوبًا على أمره إذا ارتحل إلى الحضر ، ومغلوبًا على أمره إذا استقر فى البطيحة يعمل بأرضه ، ومغلوبًا على أمره إذا استأجره السادةُ الأشراف . فإذا أضفنا إلى ذلك قسوةَ محصلى الضرائب وجامعى الخراج ، وتصورنا ما كانوا فيه من شظف وبأساء وقذارة ، اكتملت صورة الموت البطىء الذى كان يدب فى أوصالهم .

من هنا ينبغى ألا نعجب حين نقول إن البصرة — بخاصة بعد أن زال كثير من فوارق الجنس — لم تعرف الاستقرار لفترة طويلة . ودارس تاريخها يرى أنها المدينة الوُحْدى التى ظلت قلقةً أيامَ الرشيد ، وفى الروايات أن أجزاء مملكته كانت تنعم بالسكينة والهدوء !

على أنى أريد أن أسجل ظاهرتين مهمتين فى تاريخ تلك المدينة إبّانَ فترات الصراع هذه : الظاهرة الأولى هى انشغالُ الفردِ بنفسه لتوفير أسباب الحياة لها فقويت من هنا روح الفردية . والثانية الإيمان بالقدر وضرورة الاستسلام له ولا سيما بعد أن لمسوا فَشَلَهم فى كل حركة يقومون بها .

وقد ترتب على الظاهرة الأولى شيوعُ فكرة أنَّ المصدر الأولى للسلوك هو المنفعة الشخصية ، ويجب أن لا ننسى أن فيهم تجاراً وفيهم رواسب الحياة الجاهلية القديمة . ومن ثم كانت الصفة الجوهرية فيهم هى « الأنانية » وكان إحساسهُم بالواجب فيما يبدو اتجاهًا مضادًّا لطبيعة الإنسان ، وصار مقياس الخير أن يَحْصُلَ المرءُ على أكبر قَدْر مما يريح جَسَدَه ويلذُّه ، وما بشار وأبو نواس والخليع ومن يجرى فى فلكهم إلا ممثلين لذلك أروع تمثيل وأصدقه !

وأما الظاهرة الثانية فقد ترتب عليها ظهور فرقة القدرية التى ستعمل عملها فى تكوين عقلية الشعب البصرى . وما المعتزلة إلا خَلَفٌ لها ، وهذه طَبَعَتِ البصرةَ بطابَع عقلىّ مادىّ مرجعه إلى الفلسفة من ناحية واشتغال القوم بالتجارة من ناحية أخرى . ولكن ما لنا نسرع ولهذا موضعه فى فصل قادم من فصول هذا الكتاب ؟

وباختصار نرى أن السادة العربَ وكان منهم الحكام والأشراف قد تمتعوا بحياة اجتماعية راقية ما كانوا بعيدين عما يسيئون به الحكومة ، وأما المحاربون فبعضهم كان يظل فى معسكراته حتى تكون البعوث وينتهى حظه منها ، فإما عاد إلى وطنه وإما بقى فى المدينة يشارك أهلها فيما يصنعون .

فإذا تحولنا إلى الجانب الآخر ، وجدنا العَجَم أو الرعية ؛ فمنهم النبط

الذين عاشوا للأرض وحوربوا فى سبيلها وزاحمهم فيها بعض العرب، ومنهم دهاقنة الفرس وأبناؤهم، وكل من له صلة بالحياة سواء ما كان يمس الزراعة أو التجارة .

وقد كانت حال المشتغلين بالتجارة أرفع مستوى من غيرهم فكونوا هذه الطبقة التى استعرنا لها من المحدثين اسم البرجوازية .

**موقفهم السياسى :**

بقى أمامى مجال ضيق ، من حيث هو مساحةٌ تستوعب فكرة ! ولكن هذه الفكرة ضخمةٌ ، لأنها تناقش الجانبَ السياسىَّ من حياة البصريين . وضخامة هذه الفكرة هى التى تجعلنى أكتفى بالإشارة ، لأنى أعلم أنّ بسطها موكول دائمًا لغيرى من الذين يقدرون على تفسير حوادث التاريخ .

وقد يجب أن أعيدَ ما قلتهُ قبلُ ، أعنى أن عناصر هذا الشعب لم تكن لتلتئم سريعًا وحالها على ما رأينا . ومهما يكن المسيطرون من الحكام أقوياء فلن يستطيعوا أن يمحوا الفروق الجنسية ، ويوحّدوا الأهواءَ النفسية ، ويزيلوا كلَّ العلل الطبعية . فلا نَدهشْ بعدُ حين أزعم أنّ هذا البلدَ لم ينعمْ بكثير من الاستقرار السياسى طيلةَ فُتُوَّتِه ومدى شبابه ؛ فكان ثمةَ قوى تتفرق وتتبدد ، وكان ثمةَ عصًا تتشقق وتتحطم ، ثم كانت هناك جهودٌ تبذل وتضيع !

ولقد مضى القرنُ الأول فى محاولة إعداد حياةٍ حاول الإسلامُ رسمها وتطبيقها . ولكنّ اتجاه البصرة فيه ، كان اتجاه من لا يعرف مصيره ولا أين هواه ! وأصبحتْ حياتُها فى ظل الخلافة الأموية حياةً عسكريةً تمتحنها عواملُ الهدم من الداخل والخارج ، وأخذت الطبقات تصطرع ويعيش بعضُها على حساب بعضها الآخر . وتلك طبيعةُ نظام يقوم على التفرقة بين غالب ومغلوب ، بل يقوم على عصبية داخلية هى التفرقة بين من هو مضرى وربعى

وقحطانى . فلم يكن بُدٌّ من التنازع والاختلاف ، ولم يكن بُدٌّ من حياة قلقة حائرة .

وكانت حضانة هذه البلبلة فى كنف العثمانية ، ثم اشتد عودُها فراحت تنشد المثل السليمة على يد الخوارج !

كانت كل العناصر التميمية — وهم أكبر قطاع عربى فى البصرة وكان معهم الأزد ووراءهم الزط والسيابجه ، تساند عثمان وتؤيده[١] . فلما قتل فى الثورة المعروفة ، وتولى الخلافة من بعده علىّ بن أبى طالب أرسل إليهم واليه عثمان بن حُنيف الأنصارى[٢] فلم يستطع أن يحوّلهم عن روحهم العدائى ، بينما نجح فى استمالة قبائل أخرى من ربيعة ، ومن هنا لم تجد عائشة والطلحية صعوبة فى ضمّ التميميين إلى المعسكر المناوئ حيث اجتمعوا مع الأزد — ثانية — ومع بعض قبائل العالية ، وبهذه القوة استطاعت عائشة أن تستولى على الزابوقة[٣] ، فلما وقعت « الجمل » فى الخريبة أو الزابوقة[٤] وانتصر علىٌّ بمن معه من بكر وعبد القيس — وهم من ربيعة — أصبحت البصرة ثلاثة معسكرات أحدها الذين وقفوا على الحياد من بعض تميم والأزد وربيعة .

ولّى على عليهم فى هذه الظروف الحرجة واليه عبد الله بن عباس ، وسافر إلى الكوفة ، فإذا تميم تنتهز الفرصة فتنقد النظام القائم ، وتبكى على شهدائها ممن كانوا مع عائشة أمثال هلال التميمى ، وتمجد شجاعة أبطالهم ممن حاربوا علياً كأبى الحرباء وأبى فروان وربيعة العسلى[٥] .

ولا أطيل ، فوقعة صفين لا تغيّر من الموقف شيئاً ، ويكون معاوية فى

---

(١) راجع تاريخ الطبرى ١ : ٢٩٨٥

(٢) راجع تاريخ أبى الفدا ١ : ١٨٠ ( طبعة القسطنطينية سنة ١٢٨٦ ) .

(٣) معجم البلدان ٢ : ٩٠٥ ، تاريخ أبى الفدا ١ : ١٨٢ ، الطبرى ١ : ٣١١٥

(٤) نرى وجهات النظر المختلفة عند الطبرى ( ١ : ١٣٧٨ ، ٣١٨٠ ) واليعقوبى ( ٢ : ٢١ ) وميور فى كتابه The Caliphate, its Rise, Decline, and its Fall. P. 247.

(٥) هو من بنى عسل التميميين ، وقد أسره على ، فلما أطلقه مال إلى الخوارج ( راجع الاشتقاق لابن دريد ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ) .

دمشق قد كسب ودّ الأزد فى البصرة باصطناعهم فى الحكم ، فتتوقف تميم مغيظة ، وينضم بعض أبنائها إلى الخوارج . ولما يعمل معاوية على عزل المصر عن أحداث العالم الإسلامى ويرسل واليه زياد بن أبيه فينكل بالمصر وبها بخاصة[١] ، يكون قد كتب على البصرة نهائيًّا أن تناصب الأمويين العداء .

ويحدث بعد ذلك أن يموت معاوية ، فلا يكاد يزيدُ ابنُه يقبل حتى تعلن البصرة — أى تميم وأحلافها — ثورتها ، متذرعة بملاينة الأمويين لربيعة والأزد ، وتنضم إلى عبد الله بن الزبير بمكة . وفى هذه الفترة من التاريخ — وقد أجبر البصريون أميرهم يزيد على الهرب — تجتمع أخماس المصر بقيادة تميم وتختار عبد الله بن الحارث أميراً دون أن يرجعوا إلى أي خليفة[٢] ولكن خطر الخوارج يستفحل فجأة ، وتتعرض المدينة له بإلحاح فتتسرب جماعات من الأهلين إلى البطائح لتنضم إلى الثوار ، فلا يجد المصر بدًّا من الانضمام إلى الأمويين بقيادة المهلب بن أبى صفرة لا سيما أن مصادر رزقهم تعرضت للفساد ، ويكون معنى ذلك أن تنضم الأزد ومعها قيس الربعية إلى ابن الزبير ما دام منافسوهم التميميون قد اجتمعوا مع الأمويين ، ثم يكون معناه انتصار تميم وأحلافها فى وقعة « مرج راهط » تلك التى هزم فيها الأمويون أعداءهم تحت لواء الضحاك بن قيس ، قائد ابن الزبير[٣] .

وعلى الرغم من ذلك فقد تم لابن الزبير الاستيلاء على البصرة ، وأرسل ابنه حمزةَ ثم أخاه مصعبًا ليتولى كل منهما أمرها . وقد حاول مصعب أن يستميل إليه المقاتلين بمنحهم العطاءَ مرتين[٤] ، إلا أن الفئاتِ التميمية وأحلافها المنتفعةَ بالحكم الأموى لم تؤيدْه ، وانتهزت فرصةَ مجىء خالد بن أسَيْد إلى البصرة مُرْسَلا من قِبَل عبد الملك بنِ مروان وأعلنت انضمامَها إليه ، فنكل بهم

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٣١ وتاريخ أبى الفدا ١ : ١٨٨ ، ١٩٩

(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ٤٦٤

(٣) العقد الفريد ٣ : ١٤٦

(٤) أنساب الأشراف ٥ : ٢٨٠

مصعبٌ ، ولم يهدءوا إلا بعد أن تجهّزَ عبدُ الملك وسار إلى البصرة سنةَ إحدى وسبعين وقتل مُصْعَبًا وَوَلَدَه[١].

لم تهدأ الأحوالُ بعد ذلك ، وظلّ موقفُ سكانِ البصرة مائعًا تحدّدُه الرغبةُ العارضةُ مرةً ، وتميل به العصبية مرة أخرى ، وقد تتكاثر ضرباتُ الخوارج فتلوذ الكتلُ بالأمير الحاكم ، وقد تهدأ هذه الضرباتُ فيشعرون بزهدٍ ضارٍ في هذا الأمير !

و بقتل مُصْعَبٍ يثور المصر ، ويتنازع رياستَه عبيدُ الله بن أبي بكرة وحمران بن أبان ، فينتصر حمران ، ولكن عبد الملك لا يطمئن إليه ، ومن ثم يرسل بدلاً منه على البصرة خالد بنَ عبد الله القسري[٢] ، ولا يستطيع خالدٌ أن يفعل شيئًا إزاء فساد ينتشر وعصبيات تتوثب ! ويستمرُّ الأمرُ هكذا حتى يدخل الحجاجُ بن يوسف الثقفي المصر مهدّداً متوعداً سنة ٧٥ ، ويكون انضمامُ الأهلين إلى ابن الأشعث —الفارسي الأصل— تقوية للعنصر الإيراني الذي يشكل جزءاً من كيان السكان ، وتهديداً مباشراً لدمشق التي لم تحسن اختيار الوالي . ولقد رأى الحجاج أن يجتمع البصريون على محاربة ابن الأشعث فيأبون ويحاربونه خمسَ ليال ، وينضمون إلى ابن الأشعث بالخريبة ، فلم يجد الحجاج بُدًّا من منع المئونة عن سكان هذه المنطقة وصادرها في الكلاء ، وعسكر في الزاوية[٣] . ومن ناحية ابن الأشعث ، نراه يريد أن يعسكر في المربد فتأبى بكر وعبد القيس عليه ذلك كما مرّ بنا في الفصل الذي عقد لبيان تخطيط البصرة .

وعلى الجملة ، فلا يكاد يتقدم القرن الثاني حتى يضعف أمر الأمويين ، ويصير من المؤكد رجحان كفة العباسيين في الخفاء ، وإذا هؤلاء ينشطون بخاصة بين العلويين وبين شيعتهم من العجم . ولكنّ تميمًا تشم الخطر من بعيد ،

---

(١) الطبري ٢ : ٨٠١ وما بعدها وتاريخ أبي الفدا ١ : ٢٠٦ ، ٢٠٧

(٢) الطبري ٢ : ٨١٧ ، ٨١٨

(٣) راجع الطبري ٢ : ٨٠١ ، ١٠٦١ والكلاء هو سوق الأطعمة وكان عند الجسر الأكبر .

وترى الكوفة تستأثر بالعباسيين ، وهؤلاء ينكلون بالأمويين فى كل مكان[١] ، كما ترى كثيراً من الموالى يرتفعون بلا مبرر ، فلما نشط إبراهيم بن عبد الله بن الحسن العلوى ضد العباسيين عملت على أن تنضم إليه ، كما تنضم إليه شيعة ربيعة فى الشمال .

وهكذا كتب على البصرة أن تشكل حزبًا معارضًا للدولة ، إلا أنه حزب مفكك فيما بينه وبين نفسه ، وكان مجهوده لا يخرج عن ثورات تستهدف تقويض الدعائم ودكّ الصروح !

آية هذا أن أميراً عباسيًّا واحداً لم يثْبُت كما ثَبَتَ أيامَ الأمويين الحجاج وخالد القسرى ، حتى لقد رأينا على البصرة فى كل عام رجلاً إن لم يكن أكثر .

كل هذا تقدّمه كتب التاريخ ، وتقدم أيضًا أنه منذ بنيت بغدادُ والبصرةُ تتوارى أخبارُها ، حتى إن الطبرىَّ وابنَ الأثير لا يكادان يقُصّانِ شيئًا بعد ظهورِ القصبةِ الجديدةِ إلى الوجود ، وإنما يقفان بين الفيْنة والفيْنة حين يموت الخليل بن أحمد مثلاً أو بشار بن برد !

## تكوينهم العقلى :

كان يجب أن أؤخر هذه النقطة من البحث حتى الآن ، فقد رأيت بادئ ذى بدء أن أقدّم كلَّ شىء عن المصر ليتمَّ تكوين الجسم « السكّانىّ » الجديد فى المدينة المسلمة الجديدة ، ثم آخذ بعد ذلك فى تشخيص عقلية ذلك الجسم . آخذُ فى رسم الخطوط العريضة التى ستشكل الأدب ، وهو ما نستهدفه هنا فى المحل الأول !

ويحضرنى هنا عمل ماسينيون فى كتابه « خطط الكوفة » وقد أفاد حقًّا من كتب الأخبار والأنساب وكتب الجغرافيين العرب ، ولا سيما ما خلفه البلاذرى

---

(١) الطبرى ٣ : ٧٣ وتاريخ أبى الفدا ١ : ٢٢٥

وياقوت . وانتهى فى كتابه ذاك إلى حقيقة أراد أن يكشف بها عن تكوين البصرة العقلى ليقارن به تكوين الكوفة . ويعنينى من ذلك تسليمه بتفوق سكان الكوفة لغلبة العنصر اليمانى عليه ؛ ومن ثم كانت أكثر تمدنًا وأسبق تحضراً ، فى حين غلب على البصرة قبائل الشمال فلم تكن فيها تلك «المادة الموجدة للتصور والابتكار المختصة بتلك الجماعات الجنوبية»(١) .

وقد أتفق مع ماسينيون فى خصوبة خيال اليمانيين(٢) . إلا أن الاستناد إلى ذلك فقط بصدد تفوق الكوفة مسألة فيها نظر ، ولا سيما أن البصرة نفسها دخل فى جسمها دمٌ جنوبى . والحق أن المشكلة ينبغى أن تثار على نحو آخر ، لأنى لا أعتقد أن الكوفة كانت متفوقة على البصرة أساسًا . وليس يكفى أن يظهر لدى الكوفيين فى النثر « نهج البلاغة » وفى الشعر «الحماسات والمعلقات » وفى الدين « أحاديث حب الله » ليس يكفى أن يظهر لهم ذلك ليظهروا على البصريين !

أنا لا أتعصب ، ولكنى أعلم أن الحقيقة العلمية تحتاج فعلا إلى من يتعصب لها ، فهل نقبل ذلك ؟ وماذا إذا كانت الكوفة موطن الزهاد والصوفية وتتعصب ضد الزنادقة والسبئية ، وتستند فى الحكم إلى الأسس الشرعية فتكون Ligitimiste وفى الحقوق إلى الاجتهاد فتكون Formaliste ؟ أليس فى وسعنا أن نقول إن البصريين تزندقوا لأن حياتهم كانت تدفعهم إلى الزندقة لغلبة العنصر الأجنبى فيهم وأن نقول إنّ ما رووه فى مسائل النحو وما ابتكروه فى عروض الشعر وما ألحوا عليه من مسائل فلسفية خالصة فى إثبات وإنكار لكثير من الغيبيات والأساطير ، لا يمكن أن يكون نتاج عقلية مجدبة ، ولا يجوز أن نزعم أن هذه العقلية تعوزها روح الابتكار ؟

والحق أن أول ما يلحظه الباحث فى تراث البصريين أنهم — وقد ظهر فيهم العلماء والفقهاء — طبعوا بطابع التمحيص والنقد ، وأولعوا بالمنطق فى

---

(١) خطط الكوفة ١٣ ، ١٤

(٢) دليل ذلك الأساطير التى يسوقها كل من وهب بن منبه وعبيد بن شريه فى التيجبان وملوك اليمن !

معالجة مسائل النحو وبالتحقيق فى رواية الشعر وبالبحث والنظر فى الحديث ، وآمنوا كواقعيين بكل ما يتصل بحسهم ، وأخذوا كدينيين بمذهب أهل السنة مع نزعة قدرية ومعتزلية .

وهنا ينبغى أن أقول إن كثرة الفرق التى ظهرت على مسرح البصرة ساعدت كثيراً على رسم هذه الصورة ، لأنها كانت ذات طابع عقلى بحت . ولم يكن الأمر للصدفة حين نرى البصريين يجنحون إلى المنطق فى كل ما يتناولونه ويميلون به إلى البحث والنقد والتمحيص . أجل لم يكن الأمر للصدفة وفى البصريين معتزلة ودهرية وقوم شغفوا بالمنطق ، فى حين عرفت الكوفة الشيعة والرافضة على نطاق واسع ، وبين الشيعة والرافضة وبين فرق البصرة ما بين الطابع الغيبى والطابع العقلى من فروق .

نعم كان فى البصرة شيعة من ربيعة[١] ، ولكنهم الزيدية الذين كانوا أشبه بالمعتزلة فلم يسرفوا ولم يشتطوا وحكموا العقل فى آرائهم . ويظهرنا الأشعرى على بعض ما كانوا يذهبون إليه فإذا هو صورة لآراء المعتزلة أنفسهم ؛ فهم ينزهون الله عن كل شىء ، وينفون عنه الصفات الزائدة على ذاته بحيث إنه عالم قادر سميع بصير بغير علم وقدرة وسمع وبصر ، ثم هم يرون رأى المعتزلة أنفسهم أيضًا فى أن البارئ لا يمكن أن يوصف بالقدرة على أن يظلم ، وذلك فى الوقت الذى يقول فيه بعضهم إنه يوصف بالقدرة على ذلك ، ولكنه لا يفعله ، وفى خلق الأعمال والاستطاعة والاجتهاد أقوال تشبه أقوال المعتزلة إلى حد بعيد[٢] حتى لقد عدهم الشهرستانى كلهم معتزلة[٣] .

حتى طبقة الزهاد التى ظهرت فى البصرة والتى كان رأسها الحسن البصرى المتوفى عام ١١٠ اتجهت وجهة عقلية فى حياتها الروحية التى كانت تحياها . وفى

---

(١) زعيمهم زيد بن على وكان تلميذاً لواصل بن عطاء أحد موالى عبد القيس ( أمالى المرتضى ١ : ١٢٤ ) .

(٢) انظر مقالات الإسلاميين ١ : ٧١ — ٧٤ .

(٣) الملل والنحل للشهرستانى ص ١٧ ( ط . ليبزج ١٩٢٣ ) .

الوقت الذى كان فيه الدهرية والقدرية والمعتزلة يبحثون فى منطق أرسطو ويقرءون الأفلاطونية الممزوجة بعناصر الفيثاغورية ، كان الزهاد يتأثرون بصميم مذهب الأفلاطونية الجديدة فى مسألة فيض الموجودات عن العقل الأول وتسلسل بعضها عن بعض . فالجميع متفلسفون ، يشتغلون بالقرآن والحديث وعلوم اللغة والشعر والكلام ، وكلهم له هذه العقلية المرتبة المنطقية الناقدة .

كان البصريون إذن مفكرين ، ولكنه الفكر المقيد بالمنطق . وكانوا أهل بحث وجدل ونقاش ، فمالوا إلى التعمق وتعلقوا بالواقع ونزعوا نزعات مادية وذهبوا مذاهب الطبيعيين من الفلاسفة والماديين من أهل الرواق ، حتى لقد رأينا بعضهم يرى فى الروح جسمًا . وتمادوا فى هذه المادية حتى أجمع المعتزلة على أن الله لم يخلق ما خلق من لا شىء وأن الأعراض كالطعوم والروائح كانت فى حال عدمها أشياء[1] بل يحكى البغدادى عن النظام أنه قال إن الخواطر والأصوات أجسام تتداخل مع غيرها فى حيز واحد[2] .

ويهمنا هنا أن نعين تلك النزعات التى غلبت على عقلية البصريين ، وربما تكون هذه النزعات أو يكون بعضها حظًا موزعًا بين بعض الأهلين فى البلاد الأخرى ، إلا أنها كانت فى البصرة أقوى ظهوراً وأشد وضوحًا . ونستطيع أن نتبين من وراء تلك النزعات اتجاهات خمسة سارت بها الأصول والفقه والكلام والتاريخ وأثرت فى الحياة الأدبية والعلوم اللسانية على ما سنرى .

## ١

أما الاتجاه الأول فيتجلى عند البصريين فى ميلهم إلى الثورة وفى طواعيتهم للتطور ، وتلك ظاهرة ترجع إلى سبب نفسى عميق التأصل . ونستطيع أن نضع أيدينا على مفتاح هذه الظاهرة فيما كان يحدث فى البيئة البصرية من اضطرابات

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى ٦٩ (طبعة مكتب نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٩٤٨) .

(٢) الفرق ٨٤ .

فى السياسة والفكر جميعًا . بل لقد كان موقع البصرة الجغرافى يفرض عليها ألوانًا من التغيير والملاءمة ، وظلت المدينة عرضة لغارات البطائح وروافد دجلة ، فكان سطحها يتخذ على مرّ الأيام أشكالاً متباينة . أضف إلى ذلك تعرض البلد — وهو منطقة مكشوفة — لأجناس شتى تفد عليه غازية أو متاجرة .

ونستطيع أن نلمس الفرق واضحًا إذا عرضنا بالذكر لمصر ، ففيها يثبت النيل فى مجراه على حال واحدة ، وتعمل الصحارى عملها فى حماية أهلها من كثير من الغزوات ، وتأخذ أرضها صورة فيها من الدوام ما يسمح لأهلها بكثير من الهدوء والاستقرار وما يفرض عليهم حظًّا من روح المحافظة .

طبوغرافية البلد إذن تفرض على أهله هذا اللون من التقلب وتدفعه إلى أن يكون فى أهبة التطور ، حتى يكون هناك هذا الانسجام الذى يحدث — طبعيًا — بين البيئة وسكانها .

فأما عن اضطرابات السياسة فأصول الظاهرة ترد إلى البيئة أيضًا ، حتى كأنما البصرة كانت ترحب دائمًا بالأجنبى . فهى ترضى باليونان يفدون عليها ويقيمون فيها ويباشرون حركة التجارة فيها وينشئون فيها أو قربها المرافىء ، ثم هى ترضى بالفرس يطؤونها غزاةً ويستقرون فيها سكانًا ، وهى فى الوقت نفسه تفتح صدرها للهنود والزنج وغير الهنود والزنج وتكون متنفسًا طبعيًا لخراسان وأهل خراسان . وإذا هناك بعد كل ذلك حركة دائبة واصطراع متصل ، وإذا الأهواء متضاربة فيضطر البعض إلى أن يسلم للبعض الآخر بشىء . وإذا العرب وهم الذين خضعوا لتطوير الدين يضيفون عناصرَ جديدة من عناصر هذا التطوير ، ويأخذون منه بحظ ، فلا يستطيعون أن يظلوا فى عزلة عن سكانها فينزلون إليهم .

وتعرف البصرة الحكم الثيوقراطى كما تعرف الحكم الديموقراطى ، وتتمتع آناً بحكومة عادلة ثم تشقى آناً آخر بملكية ظالمة . وهى تنتقل من نظام معين فى الحكم إلى نظام آخر دون أن يكون هناك غضاضة . بل هى لم تجد هذه الغضاضة على الإطلاق فى قبول آراء الوافدين ، ومن أجل ذلك لم يكن لها مذهب واحد

فى كل العصور . حتى حين جاءها الإسلام ظلت تتدرج من طور السذاجة إلى أقصى مراحل التعقد والالتواء ، فيتخذ هذا الدين أول الأمر ستاراً للفرق المختلفة ثم يصبح أخيراً مجالاً يصول فيه رجال الدين ويجولون .

والبصرة الإسلامية فى السياسة أكثر تعقيداً منها قبل أن يصل إليها الإسلام فلم تثبت على حال ، وإذا هى عثمانية تدين بالكف أولاً ، ثم تتخذ هذا المبدأ ستاراً لتعصب عناصرها ، وتكاد تنزل عنه حين نرى بعض أهلها أمويًّا وبعضهم شيعيًّا وبعضهم خارجيًّا . ويأتى واحد كالحجاج مثلاً بفكرة عن نظام الحكم فترفضه ، ويثور واحد كابن الأشعث ويفد عليها بنظام آخر فلا ترضى عنه ، وتتقدم الأيام ، ويأتى العباسيون فإذا هم أكثر ثورة عليهم مما كانوا على الأمويين . ويهاجمهم صاحب الزنج بفكرة جديدة عن العدل الاجتماعى ، فترضى عنه بعض عناصرها الكادحة ، ويقف ضده المنتفعون بالنظام القائم .

ومع ذلك فقد ينبغى أن نضع فى حسابنا دائمًا خراسان . تلك المنطقة التى كانت فى الحق قاعدة لكل الحركات الثورية التى تنشب فى البصرة ، كان فيها منذ عهد مبكر أكثر من ثلاثين ألف بصرى[1] ، وكانوا يعملون مع أهل خراسان على إشعال نار الفتن فى البلد العراق ، وقد ظلت خراسان نفسها مضطربة فتضطرب لها البصرة حتى خرج منها مَنْ حكموا بغداد فيما بعد .

وفى كل طور لا تتراجع فيها الحياة الاجتماعية ، وإذا هى تسرع فى طريق التقدم . وتقام العمائر وتشيد الدور ويتقدم المجتمع ، وينسى الطارئون حياتهم الأولى ، ويغرقون فى الأخذ بالحياة الجديدة بما فيها من متاع مادى عظيم .

فإذا وقفنا عند بعض أفكارهم نرى فيها خطوط التطور واضحة ، كما نرى أمارات التغير ودلائله . فهم صابئة منذ قديم ، وهم حريصون على الرواسب البابلية ، ويضيفون إليها ما يضيفون فى ظل اليهودية ثم فى ظل المسيحية ثم فى ظل

---

(١) يحسن مراجعة فتوح البلدان ١٠٩ ، ٤٢٣ وتاريخ الطبرى ( طبعة أوربا ٢ : ٨١ ، ١٢٩١ ) .

ثنوية الفرس ثم فى ظل الإسلام ، وإذا فريق كبير منهم إلى عصر متأخر — قلنا إنه عصر المأمون — يجمع كل ذلك ويدونه فى كتاب .

وفى عهد الثنوية الفارسية والمسيحية ، يدينون بآراء مرقيون ثم يتطورون التطور الذى حمل لواءه ابن ديصان ، ثم يكونون فى أوائل القرن الثالث الميلادى مانيين ، والمانوية ليست إلا مزاجًا من الزرادشتية والديصانية والمرقونية . ويختلط هذا المذهب فى الإسلام ببعض ما جاء به الدين الجديد ، فيشن عليه خالد القسرى حملات فى عهده ويكون من أتباعه الكثير منهم بشار وسلم الخاسر وعبد الكريم بن أبى العوجاء وغيرهم وإن غيروا رأيهم بعد ذلك أحايين وأحايين .

وفى الإسلام تكون الغالبية قدرية ثم تتطور إلى معتزلة ، ويثور المعتزلة على كل شىء حتى على تراث دينهم من أحاديث وتفسيرات ، وينتهى بهم الأمر إلى أن يكونوا فلاسفة يتحدثون عن الله وصفاته ، وعن الإنسان وطبيعته ، وعن الكون وحركته ، وهكذا . . .

ويطول بنا الأمر لو أحصينا مظاهر الاتجاه الأول . ذلك الاتجاه الذى قلنا عنه إنه يتجلى فى ميل البصريين إلى الثورة من ناحية ، وإلى طواعيتهم للتطور من ناحية أخرى ، وكان المنزعان يسيران جنبًا إلى جنب فى كل العصور .

## ٢

وأما الاتجاه الثانى فتفسره نزعة البصريين إلى الواقعية المادية ، وكانت البيئة أيضًا تفرض عليهم هذا الاتجاه فرضًا . فهم تجار وهم أصحاب ضياع ، والفقراء منهم لا يجدون خلاصًا من فقرهم إلا عن طريق المال وامتلاك القطائع ، وفى العهد الإسلامى يصبح صوت المال هو الصوت الأعلى ، وتقوم طائفة بكنزه فيكثر حديث البخل وتهبه طائفة أخرى فيلهج به الشعراء ، يقول أبو نواس فى صراحة :

سأبغي الغِنَى . . إما جليسَ خليفة نقوم سواءً أو مُخيفَ سبيل

والحق أن الدين الجديد لم يكن ينكر حُبَّ المادةِ وإن يكُنْ قد أوصى بنصيب الفقير من مال الغنى . واقتنى بعض الصحابة الدور الفخمة وراح المال يتثال عليهم وينهال ، ويسكن واحد كأنس بن مالك قصراً فى الطفوف ، ويملك غيره دوراً تحدثت عنها كتب الأخبار ، ويكاد يستحل واحد آخر — كعبد الله ابن عباس — فَيْءَ المسلمين أيام علىّ ، ثم يحمل معه هاربًا ما فى بيت المال وكان فيما زعموا ستة آلاف ألف[1] .

وهكذا أخذت الحياة تفرض عليهم حب المال ، وصارت اقتصادياتهم فى المدة الواقعة بين زوال حكم الراشدين وثورة الزنج اقتصاديات الأرستقراطية الرأسمالية ، ثم اقتصاديات الرأسمالية المدافعة عن ثروتها ثم اقتصاديات الرأسمالية الممتحنة فى وجودها حين كثرت من حولها ثورات الفئات العاملة .

ومهما يكن من نتائج هذه الحركات فإنها كانت تؤدى دائمًا إلى اتساع البرجوازية الصغيرة ، حتى لقد آمن الجميع بأن المال وحده هو سبيل الحياة ، فلسنا نعجب بعدَ حين أنْ ينظم التسوّل واللصوصية ووسائل الرّبا[2] وتصبح المنفعة مصدراً لسلوك الإنسان . ومن ثم كانت اللذات المنشردة لا تخضع لحساب أخلاقى معين — برغم قيام دين منظم لعلاقات البشر — وقيست السعادة كما وكيفاً بما يصيب الإنسان من لذة ومنفعة . وكانت النتيجة المنطقية لذلك أن أصبح الخير اتجاهًا عكسيًّا لطبيعة المرء فتحرر منه ،وكثر من هنا العابثون بالقيم الخارجون على الدين المنكرون للروحية يشجعهم دائمًا عنصر الموالى الذى كان بطبيعته لاهياً عابثاً ،حتى إن البصرة لم تصر يوماً تربة صالحة لنموّ التصوف على عكس ماحدث فى الكوفة موطن التجلى والتوبة العلنية وميدان الزهادة[3] ، والتصوف الذى ظهر فيها خلال القرن الثانى كان فجًّا غير عميق أو كان مجرد تقشف إلا فى بعض

---

(١) العقد الفريد ٣ : ١٢١

(٢) راجع البخلاء (تحقيق الحاجرى) ٢٩ ، ٣٩ ، ١٧٣

(٣) خطط الكوفة ص ١٤

حالات نسائية خاصة كان فيها نتيجة للغريزة المثالية كما يقول بلاّ[١] .

وإذا نحن فتشنا فى آراء الفرق التى ظهرت فى البصرة رأيناها كلها — فيما عدا ما قيل فى ذات الله — مشبعة بآراء مادية . فالدهريون يستبيحون كل ما يميل إليه الطبع وينكرون أن للعالم مدبراً يعرفونه ، ولا يؤمنون بالمعاد والعقاب ، ولا يأخذون بمخاريق الأنبياء[٢] . والباطنية — وقد ظهرت فى البصرة منذ نهاية القرن الثانى — ترفض المعجزات وتنكر الوحى ولا تؤمن بنزول الملائكة من السماء على أى نحو[٣] . والمعتزلة يحكمون العقل فى كل شىء ويكادون ينكرون الرسل حين زعموا أن طاعات الله واجبة بالنظر والاستدلال[٤] ، كما رأيناهم يعتبرون الروح جسماً لطيفاً والأعراض أشياء حتى قبل أن تحدث . فإن دلّ هذا على شىء فعلى أنهم قوم حسيون يؤمنون بالمادة التى تصل إليها حواسهم من لمس ونظر وسمع ، وما وراء ذلك عدم وهباء ، والشىء الذى يرفضه العقل يرفضونه لأنه لا يستقيم مع الواقع .

وتبدو هذه النزعة التى تعنى بالمحسوسات فى محاولة ثمامة بن الأشرس[٥] والنظام والجاحظ وغيرهم أن يجعلوا الحيوان موضعاً لبحثهم ونظرهم وقارنوه بالإنسان وتحدثوا عن طبائعه ، واشتغلت به الباطنية وفسروا لماذا نبت شعر الحيوان على جفنه الأعلى ولماذا وجد ثدى البهائم فى بطونها ، وبماذا تتميز السمكة النهرية عن السمكة البحرية[٦] . ومع تسليمنا بأن تاريخ العرب وأشعارهم وأمثالهم توضح أشياء مثل هذه بحيث يبدو أنه لا جديد فى الأمر فإنا نقول إن الأقدمين لم يتخذوا الحيوان أداة للتجربة إلا أن تكون تجربة ساذجة لهم فيها ميراث ساذج ، والتجربة

---

(١) Eharles Pellat : Le milieu Basrien 263

(٢) الفرق ١٧٧ ، ١٧٨ ونقد العلم والعلماء ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٣

(٣) السابق ١٧٧ ، ١٧٨

(٤) الملل والنحل ٢٩ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤١

(٥) أحد المعتزلة الكبار ، توفى سنة ٢٢١ هـ ، وله مع أبى العتاهية الكوفى مساجلات ، وروى له أخبار شنع فيها ببخله ( راجع الأغانى ٤ : ١٥ ط . دار الكتب والوثائق القومية )

(٦) الفرق ١٨٤ وما بعدها

على أى حال مرحلة من مراحل الواقعية المادية .

وقد روى أن محمد بن على بن سليمان كان يجرى تجارب طريفة على الإبل والبقر والخيل والبراذين والشاء والظباء والنسور ثم على الكلب وابن عرس والأفعى والأسد فكان يسقيها الخمر ليعرف مقدار احتمالها ، وانتهى إلى أن الظبى أملح سكراً من أى حيوان آخر[١]. ويروى النظام أنه شارك محمد بن عبد الله فى إجراء تجارب مختلفة على أحد الظلمان فكانا يلقمانه الحجر ثم الحجارة المحماة ثم الحديد الملتهب ليريا فعلها به[٢]. وحدثنا الجاحظ عن تجربة السَّذاب وأنكر على الناس عقبها قولهم إن الأفعى تكره ريح الشيح والسَّذاب وكان قد ألقى على رأسها وأنفها من السَّذاب ما غمرها فلم يلاحظ عليها شيئًا[٣]، كما وصف إناء زجاجيًّا وضع فيه عشرين عقربًا وعشرين فأراً وحدثنا بما فعلت العقارب بالفئران[٤]، ووصف تجربة ثالثة وكانت عبارة عن معركة بين جرذ وسنور[٥]. ومهما يكن من أمر هذه التجارب فإنها تدل على عناية البصريين بنوع من المنهج التجريبى واستعمالهم المنطق العلمى فى الوصول إلى الحقائق .

وفيما يتصل بذلك كله تلك الأخبار التى كان يشيعها أهل البادية عن السعلاة والجن والتى كانت تشيع فى موروثات النبط وتختلط بالأساطير الإسلامية . والجاحظ يحمل على هذه الخرافات وينكرها ويسفه القائلين بها من العلماء ويسمّيهم « علماء السوء »[٦] فى حين يحاول أستاذه أن يفسر أمر التغوّل تفسيراً نفسيًّا يساير طبيعة حياة البدو ، ويلعب الوهم دوره الأكبر فيتصورون مالا وجود له ؛ فهم يفكرون « والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة » ويرتابون ويستوحشون

---

(١) الحيوان ٢ : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ (ط . الحلبى) .

(٢) السابق ٤ : ٣٢٠

(٣) السابق ٦ : ٣٩٩

(٤) السابق ٥ : ٢٤٨

(٥) السابق ٥ : ٢٥٢

(٦) السابق ١ : ١٨٥ وحياة الحيوان للدميرى ٢ : ٢٥ (مادة سعلاة) .

ثم يتخيلون ، وربما كان منهم النفاج الكذاب فيزعم أنه رأى السعلاة ، ثم يزعم أنه كلمها ، ثم يمضى فيقول إنه رافقها ، ويتجاوز ذلك إلى أن يزعم أنه تزوجها[١] .

## ٣

وأما الاتجاه الثالث فقوامه نزعة الشك التى رأينا مثلها فيما روى عن النظام والجاحظ بالنسبة للسعلاة والغول والجن ، ثم إن أصوله ترجع للمادية التى يغرق فيها أهل البصرة حتى كانوا فى جملتهم ذوى نزعات نقدية حرة . ولعل التجربة التى رأيناها قبلُ لم يكن مبعثها إلا الشك ، فإذا لم يكن تجريب فثمة سلسلة من الاستنتاجات البطيئة والاستدلالات المتأنية ، وثمة عقل يزن قبل أن يقبل أو يرفض .

ومن هنا عرضوا كثيراً من الأصول للاختبار ، وقرأنا لبعضهم نقداً شديداً للحديث ، واجترأوا فطعنوا على كثير من الصحابة الأولين . بل لقد أقدم بعض المعتزلة على القول بإحالة إمكان الإجماع[٢] ، فى حين أسرف بعضهم الآخر فاعترض على القياس الشرعى . قال ابن عبد البر القرطبى الأندلسى إن الناس لم يزالوا على إجازة القياس حتى جاء النظام فأنكره وسلك مسلكه قوم آخرون من المعتزلة[٣] .

وقد يكون لذلك كله ما يبرره بالنسبة للبصريين عامة وبالنسبة للنظام ومن احتذاه بخاصة ، فهم كانوا يؤمنون بسلطان العقل وكانوا يرون أن سبيل المعرفة الحقيقية هو الشك .

---

(١) الحيوان ٦ : ١٥٨

(٢) الشوكانى فى الإرشاد ٦٨ (طبعة مصر سنة ١٣٢٧) وتأويل مختلف الحديث ٣٥ (ط . مصر سنة ١٣٢٦) .

(٣) جامع بيان العلم وفضله ٦٢ (طبعة مصر سنة ١٣٤٦) .

واستتبع ذلك بالضرورة اتجاه علماء البلد إلى التعمق ، وتلك ظاهرة لا بدّ أن تشيع فى بيئة عرفت المنطق والفلسفة . وليس من شك فى أن نشأة النحو البصرى على ذلك الأسلوب المنطقى المنظم إنما يرجع أولاً إلى الشك فى رواية أصحاب اللغة ، ثم إلى نزعتهم العلمية المتعمقة ، فراحوا يسيرون فى تفكيرهم سيراً منطقياً لا يرهبون شيئاً ولا يخافون الاصطدام بالنصوص ويعلنون آراء غيرهم فى حرية تامة .

وقد يكون من أسباب ذلك كثرة العناصر السكانية الطارئة عليها فكان فيهم ذكاء — وهو أحياناً أثر لامتزاج الأجناس — وكان فيهم تطرف وثورة على الأوضاع كما رأينا . وليس شك فى أن هذا يثير الحس ويدقق الفكر ، فضلاً عن أن الاشتغال بالعلم كان من حظ هؤلاء الذين وجدوا عنتاً من الدهر وضيقاً ، فكان الشك والتفكير والتحليل والموازنة والنقد منافذ لقوى الموالى ، وقد كانوا ينزعون إلى التحرر والانطلاق .

ولعل المعتزلة — وهم دائماً صورة واضحة لمعظم علماء البصرة — يقفوننا كثيراً على نزعتهم إلى الشك وإلى التعمق . فهم كما قلنا أطلقوا العنان للعقل يبحث فى كل شىء من غير أن يحده حدّ أو ينهض أمامه سدّ ، حتى إذا وقفوا أمام النقل سلموا بما يوافق البرهان العقلى فقط وإلا فليس ثمة داع إلى قبول ما يشكون فيه . بل لقد جعلوا عقلهم حكماً فى الآيات المتشابهة واعتمدوا عليه فى التفسير أكثر من اعتمادهم على المنقول ، وكذلك جعلوه حكماً فى الحديث مهما يكن اتفاق المسلمين على صحته . ومن أجل ذلك مال المعتزلة إلى الحنفية ، والحنفية كما نعرف خير من استعملوا الرأى ولذا لم يخطئ الصفدى حين قال : « إن الغالب فى الحنفية معتزلة »[1] .

ولهذه الحرية فى التفكير واستعمال المنطق المدقق الواعى رمى المعتزلة بالكفر حتى لقد قيل « وربما أخذ عليهم أنهم فى سيرهم هذا وراء سلطان العقل قد نقلوا الدين إلى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية . وهذا النهج إذا

(١) الغيث المسجم ٣ : ٤٧

صح أن يقتصر عليه فى الفلسفة فلا يصح أن يقتصر عليه فى الدين ، لأن الدين يتطلب شعوراً حيًّا أكثر مما يتطلب قواعد منطقية»[١] ، ويجوز أن نحاسبهم نحن هذا الحساب ، ولكن من الخير لنا أن ننظر إليهم على أنهم فلاسفة برغم ما يظهر منهم من دفاع عن الإسلام ، وإلا فما الفلسفة إن لم تكن كما تناولها المعتزلة ؟

ونريد بعد ذلك كله أن نختم بعبارة أثرت عن النظام فلخص كل ما رددناه فى هذه العجالة ، يقول النظام « تعلم الشك فى المشكوك فيه تعلمًا » بل لقد جعل الشك أمراً لازمًا فى كل جديد نتعرفه فكان يقول : « الشاك أقرب إليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك »[٢] .

## ٤

وأما الاتجاه الرابع فهو منزع جدلى ظهر أثره فى الدور الكبير الذى قامت به المناظرة بين الفرق . وقد رأينا قبلُ أن الخصومات قديمة فى البصرة وكانت هذه الخصومات من أسلحتها الجدل ، كما رأينا أن المناظرات كانت تجرى فى كل مكان فى البلدة . فى المساجد وفى المربد وفى أفنية الدور وفى مجالس الشعراء ، حتى لقد وصفت بالجدل[٣] .

على أن الجدل قديم ، فقد نما فى ظل الثنوية الفارسية واتخذته المسيحية سلاحًا واستندت إليه المرقونية والديصانية والمانوية وغيرها ، ولجأت إليه القدرية فى الرد على خصومهم ، ووجد فيه المعتزلة ميدانًا يصولون فيه ويجولون ، وغلب على سائر الفرق حتى استحال الأمر إلى سفسطة ، فيستطيع الجاحظ مثلاً أن

---

(١) أحمد أمين فى ضحى الإسلام ٣ : ٧٢ .

(٢) الحيوان ٦ : ١١ .

(٣) نهاية الأرب ١ : ٢٩ ( ط دار الكتب والوثائق القومية سنة ١٩٤٣ )

يقف فى صفٍّ شيء ثم يقف ضده .يذم الوراقين مثلاً ويمدحهم، ويضع رسالة فى مدح العلوم وذمها[١]، ويؤلف رسالة التربيع والتدوير فيتسع فيها بالحوار والجدل اتساعاً شديداً « فإذا هو يقف تارة فى جانب القصر يحتج له ،وتارة يقف فى جانب الاعتدال ، وهو يقف فى جانب الطول ، وإنه ليدلى فى كل جانب بالحجج والبراهين كأنه يناقش مسألة علمية دقيقة[٢] » .

بل إن بعض الشعر يستحيل فى العصر الأموى إلى نوع من الاحتجاج والجدل ، فهو خصومة وأخذ وردّ عند الفحول ، وهو وسيلة من وسائل الدفاع والهجوم عند الأحزاب .

ويطرق الجدل البيئات العلمية حتى ليأخذ به المحدثون حين يتصدون للدفاع عنه ضد المتكلمين من ناحية ، وضد أهل الكوفة أصحاب الرأى من ناحية أخرى ، وينتهى الأمر بالجاحظ إلى أن يواجه بعض المحدثين بهذه التهمة ؛ فهم لا يفهمون تأويل الأحاديث ، ولا يعرفون أى ضرب منه يكون مردوداً وأى ضرب منه يكون متأولاً ، فلولامكان المتكلمين لهلك العوام « ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون »[٣] .

ولم يملك المحدثون إزاء ذلك إلا أن يعملوا فكرهم فى بحث الرواية ونقد السند وتحروا الدقة فى ذلك ، حتى تشعبت الآراء ونشب الخلاف فيما بينهم، لا سيما أن القائمين به كانوا من أجناس شتى ولهم نزعاتهم وزواتهم ، وكان الخلاف أشد ما يكون حول ما يشم منه رائحة الوضع .

ولم يقتصر الأمر على رجال الحديث فحسب ، بل كذلك حمل جزءاً من الخصومة غيرهم من رجال الدين ، بخاصة أن القرآن نفسه كان يعرض لأصحاب الديانات التى سبقت الإسلام كما عرض للدهرية وعبدة الكواكب ، وأثار مسائل فى التكليف والجبر والاختيار ، فأتيح لهؤلاء أن يجادلوا فى الديانات ويدافعوا عن

---

(١) ياقوت فى معجم الأدباء ١٦ : ١٠٩ ( ط . دار المأمون ) .

(٢) شوقى ضيف فى الفن ومذاهبه فى النثر العربى ٧٤ ( مطبعة لجنة التأليف سنة ١٩٤٦ )

(٣) الحيوان ٤ : ٢٨٩ .

الإسلام ، فمهدوا لظهور المتكلمين يبحثون فى العقائد بالأدلة العقلية ويتسلحون بما يتسلح به الخصوم من منطق وفلسفة وانطوى بعضهم تحت لواء المرجئة وسلك بعضهم مسلك الخوارج واعتزل آخرون ، واختلفت مناهج بحثهم تبعاً لاختلاف مذاهبهم .

ومن أمثلة الجدل الذى كان يحدث فى البصرة أن أحد الملحدين قال لمتكلم : هل من دليل على حدوث العالم ؟ قال : الحركة والسكون ، قال : الحركة والسكون من العالم ، فكأنك إذن قلت الدليل على حدوث العالم هو العالم ! فقال له : وسؤالك إياى من العالم فإذا جئت بمسألة من غير العالم جئتك بدليل من غير العالم[١] .

على أن هذه المناقشة لا تعدو أن تكون لوناً من السفسطة وتلاعباً بالألفاظ ومهارة فى الخروج من المأزق ، ولكأنى بها تمثل طوراً ساذجاً من أطوار الكلام اختلفت عليه كل الأمم ونقلت إلينا الكتب القديمة أطرافاً منه وخاصة فيما نقل إلينا جورجياس من أقوال السفسطائيين فى أثينا . فإذا انتقلنا إلى القصة التالية وجدنا فيها نوعاً من الارتقاء الفكرى ؛ فقد دخل أحد المجوس من الفرس على هشام بن الحكم — وهو رافضى لزم البصرة وتعمق الفلسفة — وقال له : يا هشام هل حول العالم شىء ؟ قال : لا ! قال : فهل إذا أخرجت يدى فثم شىء يردها ؟ فقال هشام : لا ، فلن يردك شىء ولا شىء تخرج يدك فيه ، قال : فكيف أعرف هذا ؟ فأجاب : أنا وأنت على طرف الدنيا ، فقلت لك : إنى لا أرى شيئاً ، فسألتنى : ولم لا ترى ؟ فأجبتك : ليس هاهنا ظلام يمنعنى ، فقلت لى : يا هشام وأنا لا أرى شيئاً ، فسألتك : ولم لا ترى ؟ فأجبت : ليس هاهنا ضياء أنظر به ، وهكذا يستوى ما على طرف الدنيا لأنه ليس ثمة ظلام ولا نور ومن ثم ليس شىء حولها[٢] .

---

(١) عيون الأخبار ٢ : ١٥٢

(٢) بتفصيل فى المرجع السابق ٢ : ١٥٧

ولم يكن المعتزلة يرضون عن مثل هشام بن الحكم من الرافضة وأعلنوها حرباً عليهم كما أعلنوها على أصحاب الثنوية والمسيحية واليهودية ورموا الجميع بالزندقة، ذلك أن بعض الزنادقة مثل أبى عيسى الوراق وابن ذر الصيرفى كتبوا فى نصرة الثنوية[١].

ولعل النظام كان خير من يحسن الجدل والنقاش من المعتزلة ، وكانت له قدرة عجيبة على إفحام الخصم بأيسر الكلام . من ذلك قوله لبعض المانوية وهو يحاورهم : حدثونا عن إنسان قال قولاً كذب فيه فمن الكاذب ؟ قالوا الظلمة ! قال : فإن ندم بعد ذلك على ما فعل من الكذب وقال قد كذبت وأسأت فمن القائل قد كذبت ؟ فاختلطوا عند ذلك ولم يدروا ما يقولون ! فقال لهم النظام : إنْ زعمتم أنَّ النورَ هو القائل قد كذبت وأسأت فقد كذب لأنه لم يكن الكذب منه ولا قاله ، والكذب شرّ ؛ فقد كان من النور شرّ وهو هدم لقولكم ، وإنْ قلتم إنَّ الظلمة قالت قد كذبت وأسأت فقد صدقت والصدق خير ؛ فقد كان من الظلمة صدق وكذب وهما عندكم مختلفان ، فقد كان من الشيء الواحد شيئان مختلفان ؛ خير وشر على حكمكم وهذا هدم قولكم بقدم الاثنين[٢].

وهكذا أخذ المعتزلة مكاناً بارزاً فى البصرة واستطاعوا أن يتصدوا لأى عاصفة ويمروا بالمحن التى كان الإسلام يجتازها ، حتى إن الخياط يقول عنهم بعد أن عرض لأبواب طرقوها بالبحث إنَّ أحداً سواهم لا يستطيع أن يقول فيها حرفاً واحداً إلا أنْ يكون « سرق كلاماً من كلام المعتزلة فأضافه إلى نفسه»[٣] وكأنه كان يصدق على عبارة الجاحظ عنهم حين قال: والمتكلمون — يقصد المعتزلة بالطبع — يريدون أن يعلموا كل شيء»[٤].

---

(١) راجع الانتصار ١٤٩ ، ١٥٠ .
(٢) السابق ٣٠ ، ٣١ .
(٣) نفسه ٧ .
(٤) الحيوان ٤ : ١٠٦ .

ولكن روح المناظرة التى كانت غالبة على البصرة لم تقتصر على تلك المسائل فحسب، وإنما هى أيضاً وجهت المسائل اللغوية وجهات جديدة فيها نظر وبحث ومناقشة ، ونهضت بالخطابة وشدت من أزرها فعنى القوم بها وكتب فيها الكاتبون ، فقرروا أصولاً فى البيان العربى كله . فكأن الجدل والمناظرة والأخذ بأسباب الكلام والتفنن فيه ومحاولة إقناع الخصم . . كأن كل ذلك قد تضامن فى تكوين البيان العربى ، وبذلك تكون البصرة العلم الذى يهتدى به فى هذا الجانب كما اهتدى بها فى جوانب أخرى .

## ٥

وقد آن الوقت لنقف عند هذه الفردية التى أشرنا إليها تلميحاً فى فصل متقدم ، وتدل هذه الظاهرة على شىء مهم يمتاز به البصريون وهو نزعتهم الاستقلالية فى التفكير والتدبير . وقد رأينا قبلُ الطبقات العاملة لا يعنيها إلا قوتها فكانت الأثرة رائدها وفى سبيل إرضاء نزعاتها حطمت وهدمت ، وأما البرجوازية فأخص خصائصها حب الذات لأنها لم تصل إلى ما وصلت إليه من ثروة محدودة إلا بعد مشقة وتعب . وكان التاجر مثلاً يشرق ويغرب ليحصل على الثراء بعد ألوان شتى من المخاطر والمتاعب وتحمل الغربة حتى لقد قيل « أبعد الناس نجعة فى الكسب بصرى وخوزى»[١] .

وقد روى أن النظام قصد الأهواز وذهب إلى مكة وزار الكوفة واتصل بالرشيد والبرامكة فى بغداد ، وكان فى صغره ينظم الخرز فى سوق البصرة فلما كبر كان يعطى بالألف . وليس من شك فى أنه قاسى الكثير ، بل هو يحكى لنا أنه جاع حتى أكل الطين[٢] ، حتى إذا أصاب شيئاً من الغنى لم يستطع إلا أن يراه حصيلة مجهوده الشخصى . فليس عجيباً أن تكون آراؤه مخالفة لرأى

---

(١) كتاب البلدان ١٩١

(٢) الحيوان ٣ : ١٣٩

أستاذه ، ثم تكون آراء تلميذه بدورها مخالفة له . بل كذلك كل المعتزلة ، التلميذ ليس صورة من أستاذه على الإطلاق ، ولكن الكل تجمعهم خطوط كبيرة أو يسيرون فى اتجاهات عامة هى التى أخذنا أنفسنا بتحديدها .

وليست الفردية خاصة فى المعتزلة وحدهم ، وإنما هى ظاهرة نراها عند المحدّثين ونراها عند المفسرين ، كما نراها عند الكتاب وعند الشعراء . ونستطيع بمقارنة سريعة بين أفراد طائفة واحدة أن نلمح الفروق الواضحة ، فمن الخطباء مثلاً على ما نعرف وعلى ما يحدثنا به الجاحظ : ابن المقفع والحسن ابن أبى الحسن البصرى وأبو المليح الهذلى والخليل بن أحمد الفراهيدى وخلف الأحمر الأشعرى . واشتراك هؤلاء فى هذه الظاهرة لم يمنع أن يكون ابن المقفع أحد الكتاب الذين طوروا اللغة العربية بما ترجمه من الفارسية واليونانية وربما امتاز به أسلوبه الفنى ، ولم يمنع أن يكون الحسن بن أبى الحسن قاصًّا ناسكًا كثير العبادة ، وأن يكون أبو المليح عالمًا بالأخبار والآثار وأن يكون الخليل أحد الأفذاذ الذين تفردوا بعلمهم وإنتاجهم ، وأن يكون خلف الأحمر نسابة راوية للشعر[١] .

ومن القاصين كان أبو بكر الهذلى وكان موسى الأسوارى ، إلا أن اتجاه الرجلين لم يكن واحداً ؛ فبينما كان الأول يقتصر على ما يتصل بالتراث العربى والأخبار كان الثانى مفسراً من الطراز الأول ، يجلس إليه الفرس والعرب جميعًا فيفسر بالعربية ثم يترجم ما يقوله إلى الفارسية[٢] .

وكان أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية وبالقراءة والشعر وأيام الناس ، وكذلك كان تلميذه أبو عبيدة . إلا أن التلميذ أنفق جهده فى تقصى أخبار العرب ليؤلف فى مثالبهم الكتب حين اشتد ساعد الشعوبية .

وفى الكتابة كان الجاحظ فريد عصره فاختلف عن ابن المقفع ، وكان هذا لا نظير له بين من سبقوه ومن سبقهم .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٥١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ (تحقيق السندوبى ١٩٢٦) .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٣٤

وكان بشار بن برد وأبان اللاحقى وأبو نواس وابن مناذر شعراء جلسوا إلى المتكلمين واحتكوا بالمعتزلة ، وكانوا يتصلون اتصالاً فنيًّا وتنشب بينهم صنوف من النقد وضروب من الموازنة والتقويم . وقد ظلوا رغم ذلك منفصلين كأبعد ما يكون الانفصال ؛ فلكل أسلوب ولكل اتجاه ، ولكل منهج فنى يخالف منهج الآخر . بل لقد اختلف تأثر الجميع بالمعتزلة وغيرهم من المتكلمين ؛ فمنهم من حمل عليهم ومنهم من تطرف فضمن شعره بعض مسائلهم .

فينبغى إذن ألا نَدْهَشَ حين نرى فى الشعراء واحداً كبشار لا ينهض أمامه قرين ، أو واحداً كأبى نواس قلما يحتذيه آخر فى بعض خطوط مذهبه العام .

و ينبغى أيضًا ألا نسأل عن رجل كالخليل يضع العروض ويضع كتاب العين ، أو رجل كسيبويه يظل كتابه مرجعًا فى النحو إلى هذا الوقت ، أو رجل كالجاحظ يحيط بكل شىء عن عصره ويكتب فى اللغة أحيانًا ويروى فيها الروايات ويحيط بآدابها وأخبارها ويحكم ذوقه فى نقد الآثار وتمييزها ، ويكتب بأسلوب لا يزال مثالاً فى البلاغة العربية .

كان كل عالم إذن مثالاً ، إلا أن أحداً لم يكن يحتذيه طويلاً ، وإنما هى مرحلة اليفاعة حتى يكتمل فيكون شخصية متفردة .

هذه الفردية كانت تفرضها البيئة كما كان يقررها المجتمع بحيث أصبح تطور عناصره قائمًا على أساس من قانون تنازع البقاء وكان البقاء للأصلح دائمًا ، ومن هنا استماتت الطبقات الفقيرة عبثًا ، وحرَصت الطبقات الوسطى على مالها تدّرع به ، بينما عزلت الأرستقراطية نفسها مؤمنة بأن تقدم المجتمع ليس فى الواقع إلا حصاد التناحر الذى ينشب بينها وبين العامة .

أجل كان البقاء للأصلح ، ولهذا آمن الحجاج بأن النبط لا غناء فيهم ، فأراد أن يبعدهم عن الحياة .

وآمن الأمويون بأنهم وهم عرب سادة ينبغى أن توفر لهم سبل الحياة الرغدة . .

وآمن الفرس بأنهم وهم أصحاب المجد القديم ينبغى أن ترد لهم تلك الحقوق التى سُلبوها . .

وآمن النبط بأنهم وهم أصحاب الأرض ينبغى أن تعود لهم فثاروا ودحروا . .

وآمن كل فرد بأن الدنيا فرصة تنتهز ، وأن خير ما فيها لذة تختلس ، وأن الدافع إلى ما يصدر عنه هو المنفعة الشخصية . وفى حدود ذلك تقاس الأخلاق ، وتكون « الأنانية » محورها وتحصيل اللذة هدفها ، وانتهى الأمر إلى قيام سلسلة من التعارضات بين الفرد والفرد وبين الفرد والمجموعة . ومن هنا نفهم لماذا لم تتمتع البصرة بالسكينة فى كثير من عصورها ، وكيف حرَص الفرس على توثيق الصلة بين أحكامهم وبين المثل الخلقية العليا ، حتى لقد أقدم فقهاء الخوارج على أن يجعلوا مما ينقض الوضوء ما يجرى على اللسان من كذب وسباب[1] ، وكأن الناس كانت تعوزهم الطهارة الخلقية فاشترطها رجال الدين لصحة الصلاة !

بينما اختلف الأقوام فى الحدّ بين الشرّ والخير ، وظهر ذلك فيما تناقش فيه المعتزلة حتى انتهوا فى ذلك إلى أن الحكم هو العقل وحده على ما بينت ، فكان ذلك فى الحق أخطر صدام وقع بينهم وبين الدين الذى ينص على أن الرسل سبل الهداية والإرشاد . وقد اجترأ أبو الهذيل العلاف فقال بطاعات لا يراد بها الله تعالى[2] بمعنى أن المرء قد يفعل خيراً من غير أن يقصد به إرضاء الله ، بل أن يضع حدًّا بين ما يكون من الأوامر والزواجر بحيث صار عنده من يترك الطاعات كافراً وصار كل من يترك المعاصى — دون أن يفعل الطاعات — مؤمناً[3] .

وأما النظام فقد قرر أن كل ما يصدر عن الإنسان خير لأن الله لا يفعل

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام (جولدتسيهر) ١٧١ (ط . دار الكاتب المصرى سنة ١٩٤٦) .

(٢) الفرق بين الفرق ٧٥ .

(٣) الفرق ٧٦ .

بعباده خلاف ما فيه صلاحهم[١]، ثم أدلى بدلوه فى الفقه ، فقال ببطلان كنايات الطلاق ، وبعدم نقض النوم طهارة الوضوء، وبضرورة ترك كل صلاة يمضى وقتها[٢].

وأما الجاحظ فكاد يقطع الرغبة إلى الله فى الثواب حين ادعى أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار وإنما هى تعرف أهلها وتجذبهم إلى نفسها بطبعها[٣].

وهكذا يمضى كل شخص يفسر الخير وطاعة الله تفسيراً شخصياً ويحدد معنى الشر تحديداً يرضى حاجته من الدنيا حتى ليقول الحسن البصرى لرجل ذم صنفاً من الطعام هو يحبه : ما عاب هذا مسلم ! والحسن هو نفسه الذى تواترت عنه الروايات فى التزهيد فى الدنيا والعمل للآخرة ، وقد كانت دعوته إهمال الدنيا وترك ملذاتها خير دليل على انصراف القوم لها وأخذهم بها .

* * *

(١) الفرق ٨٠
(٢) السابق ٨٩
(٣) نفسه ١٠٦